الفصل الرابع

خصائص يغلب عليها جانب المعنى

١- ثراء معاني القرآن :

وهذه خاصة من خصائص التعبير القرآني ، فيها يقول الجاحظ :

« إنه ـ أي القرآن ـ قد يدل بالكلمة الواحدة والكلمات المختصرة على معان متعددة يطول شرحها ، وإذا أراد المتكلم العادي التعبير عن المعاني التي أرادها القرآن لم يصل إلى بغيته إلا بلفظ أطول ، وأقل دلالة »[١] .

فالقرآن ينتقي من الألفاظ جوامعها وأغناها بالدلالة ، ويختار من أدوات التعبير ما يعطيك من المعنى ما هو دائمًا ـ متجدد متدفق ، بحيث يسع وجهات النظر المختلفة .

« وهكذا يخيل إليك أنك قد أحطت خُبرًا به ، ووقفتَ على معناه محدودًا ، ولو رجعتَ إليه كَرَّة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد ، غير ذلك الذي سبق إلى فهمك أول مرة ، وكذلك حتى ترى للفظة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجوهًا عدة ، كلها صحيح أو محتمل للصحة ، وكأنما هي فص من الماس يعطيك كل ضلع فيه شعاعًا ، فإذا نظرتَ إلى أضلاعه جملة بهرتك بألوان الطيف كلها فلا تدري ما تأخذ عينك وماذا تدع »[٢] .

لذلك فإنك ترى الناس يذهبون مذاهب شتَّى في بيان المراد من لفظ فيه ، أو جملة .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ ص ٩٤.

(٢) النبأ العظيم ـ دكتور محمد عبد الله دراز ص ١١١ ، ١١٢ .

والاختلاف في بيان المراد من ألفاظ القرآن وجمله كان موردًا غنيًّا للمفسرين والمشرِّعين والفقهاء ، وجهودهم في ذلك معروفة لا تحتاج إلى بيان ، وذكر مقاتل في صدر كتابه حديثًا مرفوعًا : «لا يكون الرجل فقيهًا كل الفقه حتى يرى للقرآن وجوهًا كثيرة»[1] .

● لماذا كان المعنى في القرآن ثريًّا ؟

ساعد على ثراء معاني القرآن أمور نوجزها فيما يلي :

١- ما في طبيعة بعض ألفاظه من مرونة وغنى بحيث ترى للكلمة الواحدة عدة معان ، لا تنكرها اللغة بحسب الوضع ، ولا يرفضها الدين من حيث العمل والاعتقاد .

٢- ما في طبيعة بعض تراكيبه من عموم وشمول فيما يحسن فيه العموم والشمول ، فتختلف وجهات النظر حول المراد ، ويشمل هذا الفهم المتعدد وصف «واحد» ، هو أنه فهم لا يتنافي مع طبيعة النصوص ، ولا يتنافى مع حقائق الشرع كاختلافهم حول ليلة القَدر ، والليلة المباركة التي يُفرق فيها كل أمر حكيم ، والمراد بالليالي العشر في سورة الفجر ، والمراد بالشفع والوتر ... وغير ذلك كثير لا يكاد يخلو منه موضع في القرآن .

٣- ما في وجوه قراءاته من تباين يختلف معه المعنى ويتعدد ويتكاثر مثل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا** ﴾ (فاطر:٢٨) ـ برفع اسم الجلالة مرة على أنه فاعل ، وإسناد الخشية إليه يكون حينئذ بمعنى : التجلة والتكريم .

وينصب اسم الجلالة مرة على أنه مفعول به قُدِّم على الفاعل الذي هو «العلماء» لإرادة الاختصاص ، وكثير من وجوه القراءات الصحيحة تضفي معاني جديدة متسقة مع أغراض الشرع وقواعد اللغة .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١٠٣/١ .

٤- صلاحية ما في جمله من قيود لتعلقها بأكثر من جهة ، فيتعدد المعنى بتعدد جهات التعلق ، حيث لا مانع من ذلك شرعًا ، وسنضرب لذلك بعض الأمثلة فيما يأتي .

٥- ما في فواتح سوره من غرابة اختلف الفهم حولها ، وساعد التعبير على ذلك الاختلاف ، وما زالت تلك الفواتح حتى الآن نوعًا من المكنون الذي لا يقف على حقيقة معناه إلا الله ، ونقدم فيما يأتي بعض النماذج :

● **توارد المعاني على اللفظ الواحد :**

القرآن يستخدم اللفظ الواحد في مواضع متعددة ، وكل موضع يراد به معنى غير الذي أُريد به في الموضع الآخر .

ومن ذلك كلمة «هُدَى» وما اشتق منها ، فقد ورد فيه هذا اللفظ في سبعة عشر موضعًا مرادًا به سبعة عشر معنى كذلك ، وهاك أمثلتها :

بمعنى «البيان» كقوله تعالى : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ** ﴾ (البقرة:٥) .

وبمعنى «الدين» كقوله تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ** ﴾ (آل عمران:٧٣).

وبمعنى «الإيمان» كقوله تعالى : ﴿ **وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى** ﴾ (مريم:٧٦) .

وبمعنى «الداعي» كقوله تعالى : ﴿ **وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ** ﴾ (الرعد:٧) .

وبمعنى «الرسل» كقوله تعالى : ﴿ **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى** ﴾(البقرة:٣٨)[1].

وبمعنى «المعرفة» كقوله تعالى : ﴿ **وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ (النحل:١٦) .

وبمعنى «الرشاد» كقوله تعالى : ﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴾ (الفاتحة:٦) .

وبمعنى «القرآن» كقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ** ﴾ (النجم:٢٣) .

وبمعنى «التوراة» كقوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ** ﴾ (غافر:٥٣).

---

(١) ويجوز أن يراد به : «كتاب أو بيان» .

وبمعنى «الاسترجاع» كقوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة:١٥٧) .

وبمعنى «الحُجَّة» كقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٨) .

وبمعنى «التوحيد» كقوله تعالى : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ ﴾ (القصص:٥٧).

وبمعنى «السُّنَّة» كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الزخرف:٢٢) .

وبمعنى «الإصلاح» كقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ (يوسف:٥٢).

وبمعنى «الإلهام» كقوله تعالى : ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (طه:٥٠).

وبمعنى «التوبة» كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ﴾ (الأعراف:١٥٦).

وبمعنى «النبي ﷺ» وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ (البقرة:١٥٩) .

نص على هذا صاحب البرهان[1] ، على أن بعض المعاني هنا يمكن أن تتداخل ، ويمكن كذلك أن تُفسَّر بمعنى غير ما أثبتناه نقلاً عن صاحب البرهان ، والتفرقة بين هذه المواضع قائمة على اعتبارات دقيقة ونسبية .

● **السوء :**

ومثل هذا اللفظ في الاستعمال على وجوه كثيرة : لفظ «السوء» ، ولنضرب لذلك أمثلة :

بمعنى «الزنا» كقوله تعالى : ﴿ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا ﴾ (يوسف:٢٥) .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٠٣/١ .

وبمعنى «الضر» كقوله تعالى: ﴿ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ (الأعراف:١٨٨).

وبمعنى «الذنب» كقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ (النساء:١٧).

وبمعنى «الهلاك» كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ﴾ (الرعد:١١).

وبمعنى «العذاب» كقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ (الأحزاب:١٧).

وبمعنى «الأذى» كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ (الأعراف:٧٣).

وبمعنى «المنكر» كقوله تعالى: ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ (الأعراف:١٦٥).

وبمعنى «القبح» كقوله تعالى: ﴿ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ (النحل:٥٩).

وبمعنى «البلاء» كقوله تعالى: ﴿ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ (النمل:٦٢).

وبمعنى «الحزن» كقوله تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ (آل عمران:١٢٠).

وبمعنى «العورة» كقوله تعالى: ﴿ يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ (الأعراف:٢٦).

وبمعنى «الجثة» كقوله تعالى: ﴿ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ (المائدة:٣١).

وبمعنى «الهزيمة» كقوله تعالى: ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾ (آل عمران:١٧٤).

وبمعنى «الظلم» كقوله تعالى: ﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ ﴾ (النساء:١٤٩).

وبمعنى «الخيانة» كقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ﴾ (يوسف:٢٤).

وبمعنى «الميل إلى النساء» كقوله تعالى : ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ﴾ (يوسف: ٥١).

وبمعنى «الكفر» كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الروم: ١٠).

وبمعنى «السباب» كقوله تعالى : ﴿ وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ (الممتحنة: ٢) [(١)].

وبمعنى «الجنون» كقوله تعالى : ﴿ ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ (هود: ٥٤) [(٢)].

وبمعنى «السواد» كقوله تعالى : ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ (طه: ٢٢)[(٣)].

فقد بلغت المعاني التي استخدم القرآن فيها هذه المادة عشرين وجهًا كما ترى ، والتفرقة بينها تعتمد على اعتبارات دقيقة مثل «هُدَى» السابقة ، وكفى بهذين الموضعين دليلاً على طريقة القرآن في استخدام الكلمة الواحدة فيه على معانٍ شتَّى .

في الموضعين السابقين استخدم القرآن كلمة واحدة ـ مع اختلاف صيغها ـ في معانٍ متعددة كما رأينا ، وذلك إحدى طريقتين له في استثمار اللفظ .

● **احتمال اللفظ لمعان متعددة :**

والآن نعرض طريقة أخرى له في استثمار اللفظ أيضًا وهي الطريقة التي يحتمل اللفظ فيها أكثر من معنى في تركيب واحد بخلاف الطريقة المتقدمة .

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (البقرة: ٢١٢) .

---

(١) فسَّر الزمخشري «السوء» هنا بخيانة السيد ، أو مقدمات الزنا : تفسير الكشاف : ٣٥٢/٢.

(٢) المرجع السابق : ٤٠٩/٤ .

(٣) المرجع السابق : ٣١٥/٢ .

هذا جزء آية البقرة المذكورة ، وهي تذييل على ست كلمات ـ كما ترى ـ فيهن واحدة وهي موطن السر فيما نهدف إليه فيها وهي كلمة «حساب» فانظر إلى ما تحمله هذه الكلمة من معان :

فقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَنْ يشاء من عباده دون أن يحاسبه أحد لماذا رزقه ؟ لأنه يعطي عن حرية تامة .

وقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير محاسبة لنفسه ، خشية نفاد ما بيديه لأنه غني .

وقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَن يشاء ، حيث لا يكون في حسبان المرزوق جهة وكيفية الأرزاق ، لأن ذلك قد اختص الله به .

وقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَن يشاء بغير معاقبة أو محاسبة له على عمله لأنه يغفر لمن يشاء ، ويعذب مَن يشاء لا معقب لحكمه .

وقد يكون المعنى : أن الله يرزق مَن يشاء رزقًا كثيرًا ، لا يدخل تحت حساب أو حصر[1] .

هذه خمسة معان احتملتها هذه الكلمة الجامعة لا يشذ واحد منها عن طبيعتها وإن بدا بينها ـ أي المعاني ـ التباين في الأرجحية والمرجوحية ، فأقواها فيما يبدو : الرزق الكثير ، وأقلها قوة ـ فيما يبدو كذلك ـ أن يترك الله حسابه ومعاقبته إذ لا ضرورة تقتضيه ، هو وجه محتمل فقط .

● **الجمل والفقرات :**

ذلك شأن مفرداته ، أما شأن تراكيبه فعجب عاجب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ (الجاثية:٢١) .

فقد حكى الزمخشري في بيان قوله تعالى : ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ ﴾ ثلاثة آراء :

---

(١) النبأ العظيم ـ دكتور محمد عبد الله دراز ـ ص ١١٣ (بتصرف) .

الأول : إنكار أن يستوي المسيئون والمحسنون محيًا ، وأن يستووا مماتًا ، لافتراق أحوالهم .

إحياءً : حيث عاش هؤلاء على القيام بالطاعات ، وأولئك على ركوب المعاصي .

ومماتًا : حيث مات هؤلاء على البشر بالرحمة والوصول إلى ثواب الله ورضوانه وأولئك على اليأس من رحمة الله ، والوصول إلى هول ما أعد لهم .

الثاني : إنكار أن يستووا في الممات كما استووا في الحياة ، لأن المسيئين مستو محياهم في الرزق والصحة ، كما يرزق المحسنون ويصحون ، وإنما يفترقون في الممات .

الثالث : أن يكون : ﴿ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ كلامًا مستأنفًا ، على معنى : أن محيا المسيئين ومماتهم سواء ، وكذلك محيا المحسنين ومماتهم ، كلٌّ يموت على حسب ما عاش عليه[1] .

وقال سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج:١٥) .

قال العلاَّمة أبو السعود في بيان هذه الآية : « .. والمعنى أنه تعالى ناصر لرسوله في الدنيا والآخرة ، من غير صارف يلويه وعاطف يثنيه ، فمَنْ كان يغيظه ذلك من أعاديه وحساده ، ويظن أن لن يفعله تعالى بسبب مدافعته ببعض الأمور ، ومباشرة ما يردده من المكايد فليبالغ في استفراغ المجهود وليجاوز في التحدي كل حد معهود ، فقصارى أمره وعاقبة مكره أن يختنق خنقًا مما يرى من خلال مساعيه ، وعدم إنتاج مقدماته ومباديه ، ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ ـ يعني حبلاً إلى سقف بيته : ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾ أي ليختنق من قطع إذا اختنق لأنه يقطع نفسه بحبس مجاريه وقيل : ليقطع الحبل بعد

(١) تفسير الكشاف للزمخشري: ٣/٢٢٩، وقد تابعه أبو السعود في الرأيين الأول والثاني.

الاختناق ، على أن المراد به فرض القطع وتقديره ، كما أن المراد بالنظر في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ تقدير النظر وتصويره ، أي فليصوِّر في نفسه النظر ، هل يذهب كيده ذلك الذي هو أقصى ما انتهت إليه قُدرته في باب العنادة والمضارة ما يغيظه من النُّصرة ، كلا ، ويجوز أن يراد : فلينظر الآن أنه إن فعل ذلك هل يذهب ما يغيظه ؟ وقيل : المعنى : فليمدد حبلاً إلى السماء المظلة ، وليصعد عليه ثم ليقطع الوحي ، وقيل : ليقطع المسافة حتى يبلغ شأنها فليجتهد في دفع ضرره .

ويأباه ـ يعني هذا الرأي الأخير ـ أن مقاصد النظم الكريم بيان أن الأمور المفروضة على تقدير وقوعها وتحققها بمعزل من إذهاب ما يغيظ ، ومن البيِّن أن لا معنى لفرض وقوع الأمور الممتنعة وترتيب الأمر بالنظر عليه لا سيما قطع الوحي ، فإن فرض وقوعه مخل بالمرام قطعًا .

وقيل : كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحنقهم على المشركين يستبطئون ما وعد الله به ورسوله عليه الصلاة والسلام من النُّصرة ، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ـ عليه السلام ـ ويخشون أن لا يثبت أمره ، فنزلت .

وقد فُسِّر «النصر» بالرزق ، فالمعنى أن الأرزاق بيد الله تعالى ، لا تُنال إلا بمشيئته تعالى فلا بد للعبد من الرضا بقسمته ، فمن ظنَّ أن الله تعالى غير رازقه ، ولم يصبر ولم يستسلم . فليبلغ غاية الجزع ، وهو الاختناق ، فإن ذلك لا يغلب القسمة ولا يرده مرزوقًا[1] .

● القراءات وتعدد المعنى :

أما أثر القراءات في تكثير المعنى القرآني وثراء ما يستنبط منه ، فيتضح من الأمثلة الآتية :

أولاً : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى

(١) تفسير أبي السعود : ٤/١١ ، ١٢ .

﴿ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٩٥).

فقد تعددت القراءات في كلمة «غير» فجاءت مرفوعة ، ومنصوبة ، ومجرورة ، فالرفع على أنه صفة للقاعدين ، والنصب على الاستثناء ، والجر على أنه صفة للمؤمنين .

والمعنى على الأول : «لا يستوي القاعدون الأصحاء من المؤمنين والمجاهدون» .

وعلى الثاني : «لا يستوي القاعدون من المؤمنين إلا أولي الضرر» . والمستثنى منه : إما «القاعدون» وإما «المؤمنون» .

وعلى الثالث : «لا يستوي القاعدون من المؤمنين الأصحاء»[1] .

ثانيًا : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨) .

فقد قرئت كلمة «أنفُسكم» على وجهين ، أولهما : ضم الفاء والمعنى عليه : قد جاءكم رسول من جنسكم وأنفسكم ليس بغريب عليكم ، ومصداق هذا قوله تعالى : ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ (الجمعة:٢) .

والوجه الثاني ـ أنفَسكم بفتح الفاء والمعنى عليه : «لقد جاءكم رسول من أذكاكم وأطهركم قلبًا ونفسًا» .. وكلا المعنيين لائق به عليه السلام .

ثالثًا : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (سبأ:١٨،١٩) .

---

(١) مصدرنا في هذه النقول كتاب : الحجة في علل القراءات السبع لأبي علي الحسن ابن أحمد الفارسي : ١١٩/١ ، تحقيق علي النجدي وآخرين .

الآيتان تتحدثان عن أهل سبأ ، وعن النعمة التي وهبهم إياها الله ، حيث أدنى منهم مواطن النفع ، وحقق لهم الأمن في سيرهم وجعل القرى التي تقع على طريق سفرهم متقاربة بحيث يقيلون في قرية ، ويبيتون في أخرى حتى يصلوا القرية التي بارك الله فيها .

وهذا معنى قوله : ﴿ **وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ** ﴾ والشاهد في الآية الثانية في قوله تعالى : ﴿ **رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ﴾ بنصب « رَبَّنَا » على أنه منادى مضاف ، وبناء « باعد » على السكون أمرًا من المباعدة وهي قراءة حفص .

وقد أخرج الزمخشري وغيره من المفسرين المعنى على هذا الوجه فقال :

« بطروا النعمة ، وبشموا من طيب العيش ، ومَلُّوا العافية ، فطلبوا الكد والتعب كما طلب بنو إسرائيل البصل والثوم مكان المن والسلوى ، وقالوا : لو كان جنى جناننا أبعد كان أجود أن نشتهيه ، وتمنوا أن يجعل الله بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها ، ويتزودوا الأزواد ، فعجل الله لهم الإجابة »[1] .

وقد أورد الزمخشري في الآية قراءات أخرى نتعرض لواحدة منها لأنها هي التي تدخل في موضوعنا لاختلاف المعنى معها ، وهي : ﴿ **فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا** ﴾ برفع « رَبُّنا » على الابتداء وفتح الدال والعين من « باعد » ماض من المباعدة والمعنى على هذا يختلف من حيث الصياغة ، ومن حيث المقصود .

فعلى القراءة الأولى تكون العبارة إنشاءً طلبيًّا ، وعلى الثانية خبر لا إنشاء .

وقد خرَّج الزمخشري المعنى على هذا الوجه فقال : « والمعنى خلاف الأول هو استبعاد مسايرهم على قصرها ودنوها لفرط تنعمهم وترفههم ، كأنهم يتشاجون على ربهم ويتحازنون عليه »[2] .

(٢،١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤٥٦/٣ .

إنهم في الأول يشكون من قرب أسفارهم ويطلبون بُعدها ، وفي الثاني يشكون من بُعد أسفارهم ، على الوجه الذي ذكره الزمخشري ، ويطلبون قربها .

● **القيود وتعدد المعنى :**

قال سبحانه : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (الإنسان:٨).

والشاهد في قوله « حبه » فقد اختلفوا في مرجع الضمير على رأيين :

أولهما : أن يكون الضمير راجعًا للطعام لذكره قبله ، والمعنى : أنهم يطعمون الطعام وهم يحبونه لاحتياجهم إليه ، وتعلق أغراضهم به ، وهذا عملاً بقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ (آل عمران:٩٢) .

وقوله : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر:٩) .

وثانيهما : أن يكون الضمير راجعًا إلى اسم الجلالة من باب الإضمار ولا ذكر لقوة ظهوره ، والمعنى عليه : ويطعمون الطعام على حب الله لا حب غيره ، أي لا يريدون عليه جزاءً ولا شكورًا ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى بعده : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان:٩) أي أنهم يطعمونهم مخلصين العمل لله .

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(آل عمران:٧).

والشاهد في هذه الآية : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ .

فإن الله سبحانه ـ لما بيَّن لرسوله نوعي الآيات المنزَّلة عليه : نوع واضح في الدلالة لا يُختلف فيه ، ونوع محتمل لعدة وجوه .. لما بيَّن له ذلك قال : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ .. ثم قال : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ .

والعلماء في تفسير هذا لهم وجهان :

الأول : أن الواو للعطف ، والمعنى عليه : أن تأويل المتشابه شركة بين الله وبين «الراسخين» في العلم ، فهم يعلمونه بإلهام منه سبحانه ، وعليه أيضًا فإن موضع الجملة بعدها : «يقولون» استئنافية ، أو هي حال من الراسخين»[1].

الثاني : أن الواو استئنافية ، فهي ليست عاطفة ، والمتشابه هو الذي استأثر الله وحده بعلمه دون سواه .

وعلى هذا فإن موضع الجملة «يقولون» خبر «الراسخون» وهذا الرأي ـ فيما يبدو ـ أقوى من السابق ، لخلوه من الاعتراض لأن الأول اعترض عليه بعضهم فقال : «كيف يجوز في اللغة أن يعلم الراسخون ، والله يقول : ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ وإذا أشركهم في العلم انقطعوا عن قوله : «يقولون» لأنه ليس هنا عطف حتى يوجب للراسخين فعلين»[2] .

ولهذا حاول بعض العلماء الرد فقالوا : إنَّ «يقولون» هنا في موضع الحال كأنه قال : «والراسخون في العلم قائلين : آمنا به» .. كما قال الشاعر :

الـــرِّيحُ تَبْكِـــي شَـــجْوَهَا وَالبَـــرْقُ يَلْمَـــعُ فِـــي غَمَامِـــهْ

أي لامعًا .

وقيل : المعنى : «يعلمون ويقولون» فحذف واو العطف كقوله : ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة:٢٢) والمعنى : يقولون : علمنا وآمنا ، لأن الإيمان قبل العلم محال ، إذ لا يتصور الإيمان مع الجهل : وأيضًا لو لم يعلموها لما كانوا من الراسخين ، ولم يقع الفرق بينهم وبين الجهال[3].

وقال سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٢٦٠ .

(٢،٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٢/٧٣ .

﴿ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (الممتحنة:١) .

نسوق هذه الآية دليلاً من نوع آخر على ما تحتمله القيود من وجوه في الإعراب ، يتبعها اختلاف في المعنى .

قال صاحب الكشاف : «تلقون» : فإن قلت : بِمَ يتعلق ؟ يجوز أن يتعلق بـ«لا تتخذوا» حالاً من ضميره وبـ «أولياء» صفة له ويجوز أن يكون استئنافًا ، والباء في «بالمودة» إما زائدة مؤكدة للتعدي مثلها في : ﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ (البقرة:١٩٥) وإما ثابتة على أن مفعول : «تلقون» محذوف ، معناه : تلقون إليهم أخبار رسول الله بسبب المودة التي بينكم وبينهم ... فإن قلت : «وقد كفروا» حال مِمَ ؟ قلت : إما من «لا تتخذوا» وإما من «تلقون» أي لا تتولوهم أو توادونهم وهذه حالهم .. و«يخرجون» استئناف كالتفسير لكفرهم وعتوهم ، أو حال من «كفروا»[1] .

فأنت ترى إلى أي مدى كانت القيود في هذه الآية محتملة للوجوه الإعرابية التي تبعها اختلاف في المعنى .

- **سر هذه الظواهر :**

لماذا جاء القرآن على هذه الوجوه ؟

نرى الزمخشري يجيب على هذا السؤال فيقول :

فإن قلتَ : «هلا كان القرآن كله محكمًا» ؟ يعني دلالته قطعية في كل موضوع ، قلت : لو كان كله محكمًا لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذي لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به ، ولما في المتشابه من الاستيلاء والتمييز بين الثابت على الحق ، والمتزلزل فيه ، ولما

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤٠٩/٤ .

في تقادح العلماء وإتعابهم القرائح في استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله[1] .

هذا كلامه . وهو ـ وإن كان في الدفاع عن ورود المتشابه في القرآن ـ فإن له بما نحن فيه نسبًا وصلة .

٢- دقة النظم :

وهذه ـ أيضًا ـ خاصة من خصائص الأسلوب القرآني ، يغلب فيها جانب المعنى على جانب اللفظ .

ونضرب لذلك ثلاثة أمثلة ...

أولاً : في تاريخ الأمم

قال سبحانه : ﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ** ﴾ (الأعراف:١٣٣) .

في هذه الآية نجد خمسة أسماء مسرودة سردًا إجماليًّا ، والشأن في مثلها ألا تكون موضعًا للجمال ، ولا مجالاً للتصرف في القول ، ولكنها في هذا الموضع تجد فيها نوعًا من الجمال التأليفي المبني على قاعدة وقانون .

لأن هذه الأسماء الجوامد تتفاوت فيما بينها خفة وثقلاً ، فأخفها على اللسان : الطوفان والجراد والقمل ، وأثقلها : القُمَّل والضفادع .

فقدَّم الطوفان لخفته ، ولمكان المدين فيه ، ليأنس اللسان بخفتها ، ثم الجراد لأنها تلي الطوفان في الخفة ، وفيها مد كذلك .

فهما بمثابة ترويض للسان متدرجة في النطق ، وبعدهما جاء بالاسمين الثقيلين ـ القُمَّل والضفادع ـ بادئًا بأخفهما : «القُمَّل» اطرادًا على السُّنَّة التي شرحناها ، ولمكان الغنة فيه .

ثم جاء بالاسم الخامس : «الدم» وهو أقلها حروفًا ، وأكثرها خفة ليسرع اللسان بها بعد ذلك الجهد الطويل ، وما أشبه هذا برحلة طائر يبدأ سيره وئيدًا

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢٥/١ .

وئيدًا فإذا ما اقترب من بُغيته ، قبض من جناحيه ، وبطَّأ من سيره تأبيًا[1] للنزول .

إذن فقد راعى القرآن في هذا السرد الذي تكاد تنعدم فيه الروابط إلا رباط العطف المجرد راعى فيه قاعدة فنية جمالية ، بنيت على هيئات الكلم أنفسها وأحوالها من حيث الخفة والثقل ، وعلى هذا التناسق الذي كان مثار العجب ، قدَّم ما هو جدير بالتقديم ، وأخَّر ما هو جدير بالتأخير .

ويمكن أن نفهم النص على وجه آخر ، وعلى قانون آخر غير الذي تقدَّم الحديث فيه ، وهذا القانون هو ما سبق أن ذكرناه : « قطع النظير عن النظير » .

فقد سبق أن خرَّجنا عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (طه:١١٨،١١٩) حيث قطع الظمأ عن الجوع وهما نظيران ، والضحاء عن العِرى وهما نظيران كذلك ، وقلنا : إن الداعي إلى هذا العمل هو تكثير النِّعَم ، ويرى بعض الباحثين أن الآية تضمنت ضرورات الحياة الأربع : الطعام ، والكساء ، والمسكن ، والشراب[2].

وفي آيتنا هذه قطع للنظير عن النظير ، فقد ذكر الطوفان أولاً ، وكان الظاهر يقتضي أن يذكر بعده الضفادع لأنه تعيش ـ غالبًا ـ في الماء ، ويكثر وجودها فيه ، ثم الدم ، لأنه كان يظهر ـ حسب ما اقتضه حكمة الله ـ في الماء .

لكنه خالف هذا الظاهر لأنه لئلا يتوهم متوهم تقليل الآيات بحسبان الطوفان والضفادع والدم كالآية الواحدة ، ففصل بينها لهذا الغرض ، ثم قدَّم الجراد على القُمَّل لظهوره أمام النظر أكثر ولأنه شيء خارجي عن الإنسان ، وأخَّر القُمَّل لاختفائه وعدم وقوع الرؤية عليه كثيرًا .

---

(١) تأبيًا : استعدادًا ، أساس البلاغة مادة : « أب » .

(٢) مجلة الصحة النفسية التي تصدر بالقاهرة ـ السنة السادسة العدد السادس ص ٩ .

ثانيًا : في التشريع

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (النساء:٢٣).

قال صاحب الظاهرة القرآنية[1] بعد أن ذكر هذا النص :

« هذا نص أساسي يقرر في نفثة واحدة من الوحي ، تشريع الزواج بجميع تفاصيله وشروطه القانونية الضرورية ، وهو ينظم بصورة ما المحرَّمات من النساء مشتملاً بذلك على حكمين جوهريين ، هما : الاستيعاب والحصر الشامل للحالات المشار إليها ، وتصنيفها في نظام منطقي ، وترينا مناقشة النص تصنيفًا للحالات المحرَّمة بدرجة القرابة العصبية والترتيب النزولي : الأم والبنت والأخت ـ والعمة والخالة ـ وبنت الأخ ، وبنت الأخت من القرابة المباشرة ـ والمرضعة وأخت الرضاعة من القرابة الرضاعية ، ولا يحل للرجل أن يتزوج أم امرأته ، أو ابنتها أو أختها ، فدرجة القرابة هنا مقيسة بالنسبة للمرأة ، ويمكن أن نلحظ ـ أيضًا ـ في هذا التصنيف أفضلية رباط الذكورة على رباط الأنوثة ، فابنة الأخ تُذكر قبل ابنة الأخت ، والقرابة المتصلة بالزوج تُذكر قبل القرابة المتصلة بالزوجة ، مع أسبقية رباط الذكورة» . (انتهى كلام صاحب الظاهرة القرآنية) .

ويمكن تلخيص الأسس التي بني عليها تحليله للآية الكريمة في العناصر الآتية :

١- القرابة المباشرة . ٢- الترتيب النزولي .

٣- أفضلية علاقة الذكورة .

---

(١) هو مالك بن نبي الجزائري ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

ولا يستطيع أحد أن يقلل من قيمة هذه الاعتبارات التي أوردها الكاتب ، وقد أشار القاضي أبو بكر الباقلاني ـ قبل صاحب الظاهرة القرآنية ـ إلى شيء من هذا التفصيل في هذه الآية في كتابه المعروف « إعجاز القرآن» .

ونحن مع الرجلين فيما ذهبا إليه ، ولكننا نرى إمكان تحليل الآية على وجه آخر لا يختلف عما ذهبا إليه ، وإن اشتمل على جديد لم يلحظاه هما .

وهذا الوجه هو : أن هذه الحالات الثلاث عشرة المحرَّمة المنصوص عليها في الآية الكريمة ترجع إلى عنصرين أساسيين هما :

أولاً ـ حُرمة ذاتية : ويدخل تحت هذا الضابط سبع حالات هي : الأم ـ البنت ـ الأخت ـ العمة ـ الخالة ـ بنت الأخ ـ بنت الأخت .

وقد روعي في ترتيب هذه الحالات السبع ما يأتي :

١ـ أهمية الحُرمة . ٢ـ ثم علاقة الذكورة .

ولهذا ذُكِرت الأم في صدر الحالات لعظم حُرمتها ، ولأن المخاطب جزؤها ، ثم البنت لأنها تلي الأم في عظم الحُرمة ، ولأنها جزء المخاطب ، ثم الأخت لاتحادهما في أصل الولادة ، ثم العمة ، لأنها أقرب النساء إلى المخاطب بعد المذكورات ، ثم الحالة لنفس السبب .

وقُدِّمت العمة على الخالة ـ مع اتحاد درجة القرابة ـ لتفضيل علاقة الذكورة على الأنوثة ، إذ القرابة في العمة من جهة الأب ، وفي الخالة من جهة الأم (أخت الأب ثم أخت الأم) .

كذلك قُدِّمت بنت الأخ على بنت الأخت لعلاقة الذكورة مع الاتحاد في درجة القرابة .

وأخِّرتا عن العمة والخالة ـ فوق ما ذُكِر ـ لأن القرابة في العمة والخالة من جهة الأصول ـ الآباء والأمهات ـ وفي بنت الأخ وبنت الأخت من جهة الفروع : الأخوة والأخوات ... وهكذا .

ثانيًا ـ حُرمة عارضة : وتحت هذا الضابط ست حالات وهي فيما بينها نوعان :

١- ما كانت العِلَّة فيه الرضاعة .

٢- ما كانت العِلَّة فيه الزواج .

والنوع الأول تحته حالتان : الأم من الرضاعة ، والأخت من الرضاعة ، وقد ذُكِرتا على هذا الترتيب ، فقُدِّمت الأم على الأخت تشبيهًا لها بالأم الحقيقية من حيث الحُرمة وما ثبت لها هناك من أحكام ، وتلتها الأخت لما تقدَّم .

وقد صُدِّرَ هذا القسم بما صُدِّرَ به القسم الأول ، الأم هناك هي أول من ذُكِر وهي هنا كذلك مع مراعاة الترتيب النزولي في جميع الحالات .

وقُدِّم سبب الرضاع على سبب الزواج لأسبقية الأول وجودًا .

والنوع الثاني تحته أربع حالات :

١- أم الزوجة . ٢- بنت الزوجة .

٣- حلائل الأبناء . ٤- الجمع بين الأختين .

وقُدِّمت الأم هنا ـ كما قُدِّمت في القسمين الأولين ـ فالنظم يجري ـ كما ترى ـ على نسق واحد ، ثم بنت الزوجة المدخول بها ، تشبيهًا لها بالبنت المولودة من الزوج ، ثم حلائل الأبناء ، وأخيرًا الجمع بين الأختين .

● **سؤال لا بد منه :**

وهنا يمكن أن يرد سؤال مؤداه : إن ما ذهبتم إليه من أسبقية علاقة الذكورة على الأنوثة غير ملحوظ هنا بل النظم يخالفه صراحة ، إذ قُدِّمت بنت الزوجة ـ والعلاقة فيها الأنوثة ـ على حليلة الابن ـ والعلاقة فيها الذكورة ـ فما دفاعكم ـ إذن ـ عما تقولون ؟ وكان مقتضى منهجكم أن تُقدَّم حليلة الابن على بنت الزوجة ؟

● **وجواب من ثلاثة وجوه :**

الأول : أن التقديم ـ هنا ـ جار على اعتبار بنت الزوجة المدخول بها مثل بنت المخاطَب فهي ـ إذن ـ جزؤه ، حيث إنها تربى في حجره ، وتحت رعايته ، وقد أشار إلى هذا المعنى الزمخشري حيث يقول [1] :

« فإن قلت : ما فائدة قوله : ﴿ **فِي حُجُورِكُم** ﴾ ؟ قلت : فائدته التعليل للتحريم وأنهن لاحتضانكم لهن ، أو لكونهن بصدد احتضانكم وفي حكم القلب في حجوركم إذا دخلتم بأمهاتهن ، وتمكن بدخولكم حكم الزواج ، وثبتت الخُلطة والألفة وجعل الله بينكم المودة والرحمة وكانت الحال خليقة بأن تجروا أولادهن مجرد أولادكم ، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم » .

ويرى العلامة أبو السعود ما يرى الزمخشري ، فقد قال في توجيه عِلَّة التحريم فيها : « فإن كونهن بصدد احتضانهم لهن ، وفي شرف التقلب في حجورهم ، وتحت حمايتهم وتربيتهم مما يقوي الملابسة والشبه بينهن وبين أولادكم ويستدعى إجراءهن مجرى بناتهم » [2] .

الثاني : يمكن جعل هذين الحالين ـ أي حُرمة حلائل الأبناء ، والجمع بين الأختين ـ نوعًا مستقلاً ، وعليه فإن النسق يجري على منهج واحد من تقديم عِلَّة الذكورة على الأنوثة .

والأساس الذي يمكن صحة هذا الاعتبار عليه هو كونه ابتدأ هذا النوع بما علاقته الذكورة ، والذكورة مقدَّمة على الأنوثة في هذا النظم ، لذلك أرى جعله نوعًا مستقلاً جرى فيه النظم على النهج المألوف .

الثالث : أن النظم الكريم حين تحدَّث عن أصل الزوجة ـ وهي الأم ـ ناسب ذلك الحديث عن فرعها ، وهي البنت ، حتى لا يكون الكلام مقطوعًا حيث

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٣٨٣/١ .

(٢) تفسير أبي السعود : ٥٠٣/١ .

يجب اتصاله لو أقحم حليلة الابن بينهما ، وحين أخِّرت الحليلة جاء النظم دقيقًا محكمًا .

والظاهر أن أقوى هذه الوجوه هو الوجه لأول ، يليه الثاني ، ثم الثالث فالترتيب بينها نزولي .

وأيًّا كان التوجيه فإننا نرى في هذه الآية إعجازًا في الأسلوب ودقة في النظم ، قد وضح لنا وجه الحكمة فيها ، ونذكر فيما يلي نصين لرجلين تباينت عصورهما ، والتقت أفكارهما فيما للقرآن من قوة السبك وروعة البناء وإحكام الروابط بين مفرداته وجمله ، أولهما : للقاضي أبي بكر الباقلاني معقبًا على الآية التي درسناها من عدة زوايا .

● **الباقلاني وبلاغة القرآن :**

يقول الباقلاني : « ... والكلام في ذكر حكم هذه الآية وفوائدها يطول ، ولم نضع كتابنا لهذا ، وسبيل هذا أن نذكره في كتاب «معاني القرآن» إن سهَّل الله لنا ملاءه وجمعه ، فلم تنفك هذه الآية من الحكم التي تخلف حكم الإعجاز والتأليف والفائدة التي تنوب مناب العدول عن البراعة في وجه الترصيف .. ثم في جملة الآيات ما إن لم تراع البديع البليغ في الكلمات الأفراد والألفاظ الآحاد ، فقد تجد ذلك مع تركيب الكلمتين والثلاث ، ويطرد ذلك في الخروج والابتداء والفواصل ، وما يقع بين الفاتحة والخاتمة من الواسطة أو باجتماع ذلك ، أو في بعض ذلك مما يخلف الإبداع في أفراد الكلمات»[1] .

في هذا النص يسوق القاضي ثلاث حقائق :

أولاها : أن هذه الآية مليئة بالحكم وليس كتابه «الإعجاز» موضعًا لتقصيها ، بل موضعها كتاب في عزمه أن يضع أصوله إن سهَّل الله .

ثانيها : أن القرآن في بعض المواضع لا يستعير ، ولا يُشبِّه ، ولا يستخدم شيئًا من البديع في الكلمات المفردة ، وليس معنى هذا خلو هذه المواضع من الإعجاز .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني (على هامش الإتقان للسيوطي) ص ٨٨ ، ٨٩ .

ثالثها : بل يكون فيها ما يخلف بلاغة الكلمات المفردة ، ويؤدي مؤداها في ثبوت الإعجاز لما فيه من الحكم والدقائق والأسرار ـ مثل الآية المتقدمة ـ فقد حفلت بدقائق النظم ، وقوة التأليف الذي يقوم مقام وجوه البلاغة الظاهرة .

● **الرافعي وبلاغة القرآن :**

والنص الثاني للناقد الأديب مصطفى صادق الرافعي ، يقول فيه[1] :

« ومن أظهر الفروق بين أنواع البلاغة في القرآن ، وبين كلام البلغاء ، أن نظم القرآن يقتضي كل ما فيه منها اقتضاءً طبيعيًّا ، بحيث يبنى هو عليها ، لأنها في أصل تركيبه ، ولا تبنى هي عليه ، فليست فيه استعارة ولا مجاز ولا كناية ولا شيء من مثل هذا يصح في الجواز ، أو فيما يسعه الإمكان أن يصلح غيره في موضعه إذا تبدلته منه ، فضلاً عن أن يفي به ، وفضلاً عن أي يربى عليه ، ولو أدرت اللغة كلها على هذا الوضع » .

وهنا ـ كذلك ـ ثلاث حقائق هامة :

أولاً : أن بلاغة القرآن ليست مستجلبة مقسورة في مواضعها ، بل هي من روح التعبير نفسه ، لا مارقة عنه ، ولا غريبة فيه ، خالية من كل مظاهر التكلف البغيض .

ثانيًا : بهذا يفارق القرآن كلام البلغاء ، فهم إن أحسنوا في موضع أساءوا في آخر ، وإن قوى أسلوبهم في حالة ضعف في حالات ، فما من أديب بارع إلا أنت واجد فيما يقول ما هو له ، وما هو عليه ، وليس كذلك القرآن فهو سامٍ في كل مواضعه .

ثالثًا : إنك لو ذهبت تضع لفظًا في القرآن بدل لفظ طلبت محالاً إن زعمتَ أن ما وضعته ساد مسد ما رفعت ، أو زائد عليه ، ولو خدمتك اللغة بكل ما فيها من أدوات التعبير وقوانين الجمال .

---

(١) إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي ص ٢٣٩ .

فالرجلان ينهلان من معين واحد ، وإن اختلفت لدى كل منهما ملامح الفكرة واختلفت ـ كذلك ـ طرق الصياغة ، فالهدف واحد ، هو أن القرآن معجز بأسلوبه وطرق نظمه ، مباين لكلام البلغاء ، لا فرق فيه بين مجاز وحقيقة ، وتفصيل وإجمال .

ثالثًا : في مقالات اليهود

والمثال الثالث نذكره ملخصًا في كتاب «النبأ العظيم» وضع الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز ـ رحمه الله ـ فإن فيه علامات ناطقة وآيات حق شاهدة على روعة النظم القرآني ، وإحكام الربط بين كلماته ومعانيه ، وقد أدار الباحث تحليله حول هذه الآية الكريمة :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة:٩١) .

● نصح وعناد :

هذه قطعة من فصل من قصة بني إسرائيل ، والعناصر الأصلية التي تبرزها لنا هذه الكلمات القليلة تتلخص في :

١- مقالة ينصح بها الناصح اليهود ، إذ يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن .

٢- إجابتهم لهذا الناصح بمقالة تنطوي على مقصدين .

٣- الرد على هذا الجواب بركنيه من عدة وجوه .

قال الناصح لليهود : آمنوا بالقرآن كما آمنتم بالتوراة ، ألستم آمنتم بها لأن الله أنزلها ، فالقرآن ـ كذلك ـ أنزله الله .

هذه المعاني كلها ضمنها القرآن هذه الكلمات : ﴿ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ تفسير ذلك أنه عدل عن صريح اسم القرآن إلى كنايته ﴿ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ فجعل دعاءهم إلى الإيمان به دعاء إلى الشيء بحجته ، فأخرج الدليل والدعوى في لفظ واحد .

● **طي اسم الرسول :**

ولم يذكر المنزَّل عليه ـ محمد ﷺ ـ مع أن هذا جزء متمم لوصف القرآن المقصود بالدعوة .

أتدري لماذا ؟ لأنه لو ذُكِر لكان في نظر الحكمة البيانية زائدًا ، وفي نظر الحكمة الإرشادية مفسدًا .

أما الأول : فلأن الخصوصية لا مدخل لها في الإلزام ، فأدير الأمر على القَدْر المشترك وعلى الحد الوسط الذي هو عمود الدليل .

وأما الثاني : فلأن ذكر هذا الاسم ـ محمد ـ على مسامع الأعداء من شأنه أن يخرج الضغائن ويثير أحقادهم فيؤدي إلى عكس ما قصده الداعي من التآلف ، والإصلاح .

وفي هذا الحذف ـ فوق ما ذُكِر ـ إشارة إلى طابع الإسلام وأنه ليس دين تفرقة وخصومة ، بل هو دين جامع لما فرَّقه الناس من الأديان ، داعيًا إلى الإيمان بالكتب كلها على حد سواء ، لأن الله أنزلها ، كما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أُوتِيَ موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا يفرق بين أحد منهم .

● **جواب اليهود :**

وكان جواب اليهود : أن الذي دعانا إلى الإيمان بالتوراة ، ليس كونها أنزلها الله فحسب ، بل لأنها أُنزلت علينا ، والقرآن لم ينزل علينا ، فلكم قرآنكم ولنا توراتنا ، ولكل أُمة شِرعة ومنهاج ، هذه المعاني أوجزها الله في قوله : ﴿ **نُؤۡمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا** ﴾ وهذا هو المقصود الأول ، وقد زاد في إيجاز هذه العبارة أن حذف منها فاعل الإنزال : « الله » لتقدم ذكره في نظيرها .

ومن الواضح أن الإيمان بما أُنزل عليهم يومئ إلى كفرانهم بما أنزل على غيرهم ـ ومنه القرآن ـ وهذا هو المقصد الثاني ، ولكنهم تحاشوا التصريح به لما فيه من شفاعة التسجيل على أنفسهم بالكفر ، فأراد القرآن أن يبرزه ويفضح

أمرهم ، فكيف أبرزه ؟ إنه لم يجعل لازم مذهبهم مذهبًا لهم ، ولم يُنقل عنهم ذلك نقلاً ضمن ما قالوه ، لأنهم لم يقولوه صراحة ، بل أخرجه في معرض الشرح والتعليق على مقالتهم ، فقال : ﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ أليس ذلك هو غاية الأمانة في النقل ؟

وجاء التعبير ﴿ بِمَا وَرَآءَهُۥ ﴾ محددًا للجريمة أبين تحديد ، لأنهم كما كفروا بالقرآن كفروا بالإنجيل ، وكلاهما وراء التوراة ، ولكنهم لم يكفروا بما قبل التوراة لعدم تزاحمه لهم فيما بين أيديهم .

وهذا لفظ جامع مانع ، وغاية في توخي الصدق في الاتهام ، فعداوة اليهود الحاقدة للقرآن لم تمنع القرآن من الإنصاف والعدالة .

- **دور الرد والمناقشة :**

وجاء دور الرد والمناقشة فيما أعلنوه وما أسرُّوه .

فترى القرآن لا يبدأ بمحاورتهم في دعوى إيمانهم بكتابهم ، بل يتركها مؤقتًا كأنها سليمة ليبنى عليها وجوب الإيمان بغيره من الكتب فيقول : « كيف يكون إيمانهم بكتابهم باعثًا على الكفر بما هو حق مثله؟ لا بل ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ كله وهل يعارض الحق الحق ، فيكون الإيمان بأحدهما موجبًا للكفر بالآخر »؟

ثم يترقى فيقول : « وعجيبة العجائب أن الحق الذي كفروا به جاء ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ لما سبق من الكتب المنزَّلة ـ ومنها التوراة التي آمنوا بها ـ فكيف يُكَذِّب به مَنْ يؤمن بها » ؟

ثم يستمر مفندًا حالتهم فيقول : « لو أن هذا الكتاب جاء مُصدِّقًا لمقاصد في الكتب المنزَّلة بعده ، وكانت هذه المقاصد مما طمسها التحريف لكان لهم عذر في كفرهم ، لكن كيف يكون لهم عذر وقد جاء هذا الكتاب ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ مما يتلونه ويدرسونه ويعلمونه » ؟

فانظر إلى الإحكام في صنعة البيان ، إنما هي كلمة رُفِعَت وأخرى وُضِعَت في مكانها عند الحاجة إليها ، فكانت حسمًا لكل عذر ، سادة لكل باب من أبواب الهروب ، بل كانت بمثابة حركة تطويق للخصم أتت في خطوة واحدة هادئة رزينة .

- **إفحام الخصم :**

وبعد هذا التعليق الفاضح للخصم ، الكاشف لنواياه السيئة ، القاطع عليه طريق النجاح ، انبرى القرآن للرد على المقصد الأصلي الذي تبجحوا بإعلانه ، وهو دعواهم الإيمان بما أُنزل عليهم فأوسعهم إكذابًا .

وبيَّن أن الكفر والجحود داء دفين فيهم ، ومرض مزمن توارثوه جيلاً عن جيل ، فليس الذي أتوه اليوم إلا حلقة متصلة السلسلة بماضيهم اللعين ، وساق على ذلك الشواهد والوقائع التاريخية بما لا سبيل لإنكارها ، جهل بالله ، وانتهاك حُرم الأنبياء وتمرد على الأوامر : ﴿ **قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ .

هنا تبرز حقائق يجب أن نتأملها :

١- تأمل كيف أن هذا الانتقال كانت النفس قد استعدت له في آخر المرحلة السابقة لأن السامع يفهم من تكذيبهم بما يُصدِّق كتابهم أنهم صاروا مُكذِّبين لكتابهم نفسه ، وهل الذي يُكَذِّب مَنْ يصدقك يبقى مُصدِّقًا لك ؟

غير أن هذا المعنى إنما أُخِذَ ، استنباطًا من أقوالهم ، وإلزامًا لهم بمآل مذاهبهم ، ولم يؤخذ بطريق مباشر من واقع أحوالهم ، فكانت هذه هي مهمة الرد الجديد .

وهكذا كانت كلمة : ﴿ **مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ** ﴾ مغلاقًا لما قبلها مفتاحًا لما بعدها ، وكانت آخر درجة في سلم الغرض الأول هي أول درجة في سلم الغرض الثاني ، فما أوثق هذا الالتحام بين أجزاء الكلام ، وما أرشد هذه القيادة للنفس بزمام البيان ، تدريجًا له على مدارجها وتنزيلاً له على قدر حاجتها ، وفي وقت تلك الحاجة .

٢- وانظر كيف عدل بالإسناد عن وضعه الأصلي ، وأعرض عن ذِكر الكاسب الحقيقي لتلك الجرائم ، فلم يقل : فلِمَ قتلَ آباؤكم أنبياء الله واتخذوا العجل وقالوا : ﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾ (البقرة:٩٣) لأنه لو جاء القول ـ كذلك ـ لقالوا : تلك أمة قد خلت .

ولو زاد : وأنتم مثلهم ، لجاء هذا التدارك بعد فوات البيان ، فكان اختصار الكلام على هذا الوجه إسراعًا بتسديد الحُجَّة إلى هدفها ، وأنهم سواسية في الجُرم فعلى أيهم وضعتَ يدك فقد وضعتها على الجاني الأثيم .

٣- وقد زاد هذا المعنى ترشيحًا بإخراج الجريمة الأولى ـ وهي جريمة القتل ـ في صيغة الفعل المضارع تصويرًا لها بصورة الأمر الواقع الآن ، وكأنه ـ بذلك ـ يعرض على النظارة هؤلاء المجرمين أنفسهم ، وأيديهم ملوَّثة بتلك الدماء الزكية .

٤- ولقد كان التعبير بهذه الصيغة مع ذكر الأنبياء بلفظ عام مما يفتح بابًا من الإيحاش لقلب النبي العربي الكريم ، وبابًا من الإطماع لأعدائه في نجح تدابيرهم ومحاولاتهم لقتله ، فانظر كيف أسعفنا بالاحتراس عن ذلك كله بقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فثبت قلب النبي ، وقطع أطماعهم ، كما أشارت هذه الكلمة إلى إرادة التجوز في الكلام .

٥- وانظر كيف جيء بالأفعال في الجرائم التالية على صيغة الماضي بعد أن وطَّأ لها بهذه الكلمة : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فاستقام التاريخ على وضعه الطبيعي حين لم تبق حاجة إلى مثل التعبير الأول .

٦- وانظر إلى الآداب العالية في عرض الجريمة الثانية ـ وهي جريمة الشرك ـ فإنها لما كانت أغلظ من سابقتها وأشد نُكرًا في العقول نبَّه على ذلك ألطف تنبيه بحذف أحد ركنيها ، فلم يقل : اتخذتم العجل إلهًا ، بل طوى هذا المفعول الثاني للتصريح به في صحبة الأول وبيانًا لما بينهما من مفارقة ، وكم في هذا الحذف من تعبير وتهويل .

٧- ثم انظر إلى النواحي التي أوثر فيها الإجمال على التفصيل ، إعراضًا عن كل زيادة لا تمس إليها الحاجة البيانية في الحال ، فقال : ﴿ **مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ** ﴾(البقرة:٩١) ولم يبيِّن مدى هذا التصديق ، أفي أصول الدين فحسب؟ أم في الأصول وبعض الفروع ؟. وإلى أي حد .. فليبحث علماء التشريع .

وقال : ﴿ **تَقْتُلُونَ أَنْبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ** ﴾ (البقرة:٩١) فمَنْ هؤلاء الأنبياء ؟ وكم عددهم ؟ .. فليبحث علماء التاريخ .

وقال : ﴿ **وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ** ﴾ (البقرة:٩٢) فكم هي ؟. . وما هي ؟...

وقال : ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ** ﴾ (البقرة:٩٣) فما صيغة هذا الميثاق ؟ وعلى أي شيء أعطوه ؟ ... لا أحد يدري .

إن حكمة البيان القرآني لأجِّل من أن تعرض لمثل هذه التفاصيل في مثل هذا الوضع ، وليس في تركها عيب أو نقص .

٨- إنك تلمح وراء هذا البيان قوة قوية ، أعلى من أن تنفعل بمثل هذه الأغراض ، قوة تؤثر ولا تتأثر ، تصف لك الحقائق في أمانة خيرها وشرها في عزة مَن لا ينفعه خير ، واقتدار من لا يضره شر ، وهذا شأن القرآن أبدًا وسمته التي لا يشركه فيها قسيم .

انظر إليه حين يجادل عن القرآن فلا يزيد في وصفه على هذه الكلمة : « هو الحق » ، نعم .. إنها كلمة تملأ النفس ، ولا يتطلب الموصوف بها وصفًا أشرف من هذا الوصف الذي يحوى كل الفضائل[1] .

ولنكتف بهذه الأمثلة الثلاثة دليلاً على ما في القرآن من دقة النظم ، وقوة الربط حتى في المواضع التي ليست هي مظنة لذلك ، ولقد تعمدنا أن تكون أمثلتنا الثلاثة من هذا القبيل .

---

(١) انتهى ملخصًا من كتاب « النبأ العظيم » للدكتور محمد عبد الله دراز ص١١٤، ١١٥.

٣ : اختلاف الأغراض

وهذه خاصة من خصائص القرآن الكريم ، يعمد فيها إلى الجمع بين الأغراض المختلفة في موضع واحد ، ويمزج بينها مزجًا فنيًّا قويًّا لا تحس فيه بقلق أو اضطراب ، بل تحس بالتناسب والالتئام ، وليس ذلك في مقدور أحد من الناس .

فالشعراء الفحول كانوا يجمعون في أشعارهم بين النسيب والمدح ، أو الفخر والهجاء ، وهم إذ يفعلون ذلك كانوا يسلكون فيه مسالك الاستعانة ببعض الألفاظ والعبارات التقليدية ، مثل : دع عنك ذا ... وما أشبهه ، وأحيانًا كانوا يقتضبون القول اقتضابًا فتجيء أشعارهم مفككة ركيكة ، ومعانيهم مضطربة قلقة ، وأساليبهم متنافرة .

وفحول الخطباء والكُتَّاب حتى يومنا هذا إذا حاولوا الجمع في مقال أو خطبة بين معاني متعددة احتالوا واستعانوا ، فيحسنون حينًا ، ويخطئون أحيانًا ، ذلك شأنهم في المعاني المتقاربة ، والأغراض المتناسبة ، ويركبون لكل شطط إن حاولوا الجمع بين الأضداد أو الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد .

- **صناعة القرآن :**

أما صناعة القرآن فقد أرت نُقَّاد الفنون وخبراء الأساليب روعة الانسجام بين المعاني المختلفة في جوهرها ، المنفصلة بطبيعتها ، فهو ـ على ما امتاز به أسلوبه من اجتناب سبيل الإطالة ، والتزام جانب الإيجاز بقدر ما يتسع له جمال اللغة ـ قد جعله أكثر الكلام افتنانًا في شئون القول ، وأسرعه تنقلاً بينها ، من وصف إلى قصص إلى تشريع إلى جدل ... إلى ضروب شتَّى من المعاني والفنون تبدو وكأنها وحدة واحدة ، شديدة التماسك .

« وعلى هذه القاعدة ترى القرآن يعمد تارة إلى الأضداد ، ويجاور بينها فيخرج بذلك محاسنها ومساويها في أحلى مظاهرها ، ويعمد تارة أخرى إلى الأمور المختلفة في أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون في إحكامها يسوق

بعضها إلى بعض مساق التنظير والتفريع ، والاستشهاد أو الاستنباط ، أو الاحتراس ... إلى غير ذلك ، وربما جعل اقتران معنيين في الوقوع التاريخي ، أو تجاور شيئين في الوضع المكاني دعامة لاقترانهما في النظم ، فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجًا وما هو بخروج ، فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولا صهر بوجه من تلك الوجوه ـ رأيته يتلطف في الانتقال من أحدهما إلى الآخر إما بحسن التخلص والتمهيد ، وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وجه يتلاقى فيه المتباعدان ويتصافح المتنافران»[1] .

فالطريقة المفضَّلة في القرآن أنه لا يسترسل في الحديث عن الجنس الواحد من المعاني استرسالاً يرده إلى الإطالة المملة ، بل يعرض في الوحدة ـ السورة ـ الواحدة مجموعة من المعاني يربط بينها برباط خاص .

هذا هو الرأي الصائب الذي عليه جُلَّة العلماء وفضلاؤهم ، والذي يؤيده الواقع وتنطق به الآيات .

● هل في القرآن اقتضاب ؟

وقد خالف فريق من الباحثين ـ بحسن نيَّة وضعف إدراك ـ ما أجمع عليه السَّلَف والخَلَف فادعوا غير ذلك ، وهم واهمون ، قال أبو العلاء بن غانم : « إن القرآن إنما ورد على الاقتضاب الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم ، وأن ليس في القرآن شيء من حسن التخلص»[2] .

وقال العز بن عبد السلام : «المناسبة علم حسن ، ولكن يُشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره ، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيها ارتباط ، ومَن ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا بربط ركيك ، يُصان عن مثله حسن الحديث فضلاً عن أحسنه فإن القرآن نزل

---

(١) النبأ العظيم دكتور محمد عبد الله دراز ص ١٥٧ ، ١٥٨ (بتصرف) .

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ١٠٩/٢ . والمثل السائر لابن الأثير .

في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ، وما كان كذلك لا يتأتى فيه ربط بعضه ببعض[1].

● **مبنى الشُّبهة :**

وقد بنى هؤلاء فكرتهم على ثلاثة اعتبارات :

أولها : ما في القرآن من تعدد الأغراض والمقاصد .

ثانيها : الامتداد الزمني والمكاني ، حيث استغرق نزوله ثلاثًا وعشرين سنة في موطنين مختلفين لهما اعتبارات متعددة ، وهما : مكة ، والمدينة ، وقد اختلفت الموضوعات التي عولجت في كل منهما عن الأخرى .

ثالثها : نزوله مفرقًا مُنَجَّمًا حسب المناسبات والدواعي ، فسورة البقرة ـ مثلاً ـ استغرق نزولها تسع سنوات ، وجمعت في آياتها أحداثًا كان الفارق الزمني بين وقوعها كبيرًا .

وقد وهم الغانمي والعز بن عبد السلام في ذلك وهمًا كبيرًا ، ولو أنهما لجآ إلى الفكر وأحسنا النظر بدراسة عقد المعاني في القرآن نفسه لرجعا عما قالاه ، ولاستغفرا الله ربهما .

● **رد الشُّبهة :**

وقد فنَّد المتأخرون شُبهات هذه الفكرة ، وضربوا أمثلة كثيرة لجودة الربط بين المعاني في القرآن ، من المواضع التي يظن المتعجل أن الربط معدوم بينها.

من هؤلاء ضياء الدين بن الأثير في «المثل السائر» ، والزركشي في «البرهان» .

جاء في المثل السائر :«وقال أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي : إن كتاب الله خال من التخلص ، وهو قول فاسد ، لأن حقيقة التخلص إنما هي الخروج من كلام إلى كلام آخر غيره بلطيفة تلائم بين الكلام الذي خرج منه ،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي : ١٠٩/٢ ، والمثل السائر لابن الأثير .

والكلام الذي خرج إليه ، وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة كالخروج من الوعظ والتذكير والإنذار والبشارة بالجنة إلى أمر ونهي ووعد ووعيد ، ومن محكم إلى متشابه ، ومن صفة إلى نبي مرسل ومَلَك منزَّل إلى ذم شيطان مريد وجبار عنيد بلطائف دقيقة ومعان آخذ بعضها بركاب بعض»[1] .

● **حسن التخلص في القرآن :**

فمما جاء من التخلص في القرآن الكريم قول الله تعالى :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:٦٩-١٠٢) .

---

(١) المثل السائر لابن الأثير : ١٢٨/٣ .

قال ضياء الدين معلقًا على هذا النص الحكيم : « فانظر أيها المتأمل في هذا الكلام الشريف الآخذ بعضه بركاب بعض مع احتوائه على ضروب من المعاني ، فيخلص من كل واحد منها إلى الآخر بلطيفة ملائمة حتى كأنه أُفرِغَ في قالب واحد ، فخرج من ذكر الأصنام وتنفير أبيه وقومه من عبادتهم إياها مع ما هي فيه من التعري عن صفات الإلهية حيث لا تضر ولا تنفع ، ولا تبصر ولا تسمع ، إلى ذكر الله تعالى فوصفه بصفات الإلهية فعظَّم شأنه ، وعدَّد نعمه ليُعْلِم بذلك أن العبادة لا تصح إلا له ، ثم خرج من ذلك إلى ذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه ، فتدبر هذه التخلصات اللطيفة في أثناء هذا الكلام »[1].

وهذا أحد مواضع ذكرها ابن الأثير للتدليل على ما للقرآن من قوة الربط والانتقال من معنى إلى آخر انتقالاً مناسبًا لا اقتضاب فيه ، وما أرانا في حاجة إلى ذِكر بقية الأمثلة التي أشار إليها بقوله : « وفي القرآن مواضع كثيرة من التخلصات » .

وابن الأثير موفق كل التوفيق فيما أوضحه ، وهو على طوله ، لم يف بما يمكن أن يستخلصه الباحث للربط بين تلك المعاني التي ذكرها ، ومع هذا القصور الملحوظ في توجيهه فإن فيه كفاية لحاجة المتعجل ، ودفعًا لشُبه المتطفل .

وقال الزركشي : « ... وبهذا يظهر لك اشتمال القرآن على النوع المسمى بالتخلص ، وقد أنكره أبو العلاء محمد بن غانم المعروف بالغانمي ، وقال : ليس في القرآن منه شيء لما فيه من التكلف ، وليس كما قال : « ومن أحسن أمثلته قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (النور:٣٥) ، فإن فيه خمس تخلصات ، وذلك أنه جاء بصفة النور وتمثيله ، ثم تخلَّص منه إلى ذِكر الزجاجة وصفاتها ، ثم رجع إلى ذِكر النور والزيت يستمد منه ، ثم تخلَّص منه

(١) المثل السائر لابن الأثير ـ تحقيق دكتور بدوى طبانة والحوفي : ١٢٨/٢-١٣٠ .

إلى ذِكر الشجرة ، ثم تخلَّص من ذِكرها إلى ذكر الزيت ـ ثم من ذِكر الزيت إلى صفة النور وتضاعفه ، ثم تخلَّص منه إلى نعمة الله بالهدي على مَنْ يشاء»[1] .

ثم قال : ومنه قوله : ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ (المعارج:١) فإنه سبحانه ذكر أولاً عذاب الكفار وأنَّ لا دافع له من الله ، ثم تخلَّص إلى قوله : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾(المعارج:٤) بوصف : ﴿ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾(المعارج:٣).

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ (الشعراء:٦٩،٧٠) ... إلى قوله : ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الشعراء:١٠٢).

فهذا تخلص من قصة إبراهيم وقومه إلى قوله هذا ، وتمنى الكفار في الدار الآخرة الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسل ، وهذا تخلص عجيب .

ثم أخذ يسوق أمثلة كثيرة موضحًا ما فيها من اختلاف الأغراض وحسن الربط بينها شأنه شأن ابن الأثير ، بَيْدَ أن ابن الأثير أطول منه باعًا ، وأوسع تحليلاً فيما عرض له .

هذه هي النظرة الصائبة إلى أسلوب القرآن ، وبذلك يُدرك خطأ المخالفين .

● قانون الربط بين الكلام :

ويضع الإمام بدر الدين الزركشي قانونًا لهذه الروابط في الجمل والمعاني غير المعطوف بعضها على بعض ، وكانت موضع توهم ألا ارتباط بينها ، ويُجمل هذا القانون في ثلاثة اعتبارات هي :

أولاً : التنظير

فإن إلحاق النظير بالنظير دأب العقلاء ، ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ (الأنفال:٥).

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٤٣/١ .

عقب قوله : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال:٤) فإنَّ الله سبحانه وتعالى أمر رسوله أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه ، كما مضى في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون .

وذلك أنهم اختلفوا يوم «بدر» في الأنفال ، وحاجوا النبي ﷺ وجادلوه ، فكره كثير منهم ما كان من فِعل الرسول ﷺ في النفل ، فأنزل الله هذه الآية ، وأنفذ أمره بها ، وأمرهم أن يتقوا الله ويطيعوه ، ولا يعترضوا عليه فيما يفعله في شيء ما ، بعد أن كانوا مؤمنين ، ووصف المؤمنين ثم قال : ﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ .

يريد أن كراهتهم لما فعلته من الغنائم ككراهتهم للخروج معك .

وقيل معناه : أولئك هم المؤمنون حقًّا كما أخرجك ربك من بيتك بالحق .

كقوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (الذاريات:٢٣) .

وقيل : الكاف صفة لفعل مضمر وتأويله : افعل في الأنفال كما فعلت في الخروج إلى بدر وإن كره القوم ذلك ... فشبَّه كراهتهم فيما جرى من أمر الأنفال وقسمتها بالكراهة في مخرجه من بيته ... وكل ما لا يتم الكلام إلا به من صفة أو صلة فهو في نفس الكلام[1] .

وقد ذهب الزمخشري مذهبًا قريبًا من مذهب الزركشي ، وننقل فيما يأتي توجيهه للآية الحكيمة . قال : «أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الحال كحال إخراجك ، يعني أن حالهم في كراهة ما رأيتَ من تنفيل الغزاة مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٤٧/١ .

وأن ينتصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدَّر في قوله : ﴿ **ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ** ﴾ (الأنفال:١) أي الأنفال استقرت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتًا مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون»[١] .

وعلى ما ذكره صاحبا «البرهان» و«الكشاف» فالمناسبة واضحة ، إذ الكلام لم يخرج عن طريقة التشبيه ، ولا يقال إن الجمع في الصورة التشبيهية بين المشبه والمشبه به ، مع وضوح وجه الشبه ، اقتضاب أو جمع بلا تلاؤم .

ثانيًا : المضادة

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ (البقرة:٦) .

فإنَّ أول السورة كان حديثًا عن القرآن الكريم وأنَّ من شأنه كيت وكيت ، وأنه لا يهدي الذين من صفاتهم كيت وكيت، فرجع إلى الحديث عن المؤمنين، فلما أكمله عقَّب بما هو حديث عن الكفار ، ففيهما جامع وهمي بالتضاد من هذا الوجه وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل : «وبضدها تتبين الأشياء» .

فإن قيل : هذا جامع بعيد ، لأن كونه حديثًا عن المؤمنين بالعرض لا بالذات ، والمقصود بالذات الذي هو مساق الكلام ؛ إنما هو الحديث عن الكتاب لأنه مفتتح القول .

قلنا : لا يُشترط في الجامع ذلك ، بل يكفي التعلق على أي وجه كان ، ويكفي في وجه الربط ما ذكرنا ، لأن القصد تأكيد أمر القرآن والعمل به ، والحث على الإيمان به ، ولهذا لما فرغ من ذلك قال : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا** ﴾ (البقرة:٢٣) فرجع إلى الأول[٢].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٥٤/٢ .

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٤٩/١ .

ثالثًا : الاستطراد

ومنه قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٦).

قال الزركشي : قال الزمخشري : « هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد ، عقب ذكر بدو السوءات وخصف الورق عليها ، إظهارًا للمنة فيما خلق الله من اللباس ، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعارًا بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى »[(١)] .

والزركشي ـ هنا ـ لم يتعرض لتعريف الاستطراد ، معتمدًا على ما ذكره الزمخشري في توجيه الآية .

● **فيما بين الزركشي والباقلاني :**

كما حكى عن القاضي أبي بكر الباقلاني أنه جعل من قبيل الاستطراد قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ۝٤٨ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ (النحل:٤٨،٤٩) .

قال : كأن المراد أن يجرى بالقول إلى الإخبار عن كل شيء يسجد لله ، وإن كان ابتداء الكلام في أمر خاص[(٢)] .

ثم علَّق الزركشي على كلام القاضي بقوله : « انتهى . وفيه نظر »[(٣)] .. لكنه لم يبين وجه النظر المخالف ولعله أراد أن بين الآيتين ارتباطًا ظاهرًا ، وليستا من قبيل الاستطراد ، فإن كانت هذه وجهة نظر الزركشي فنحن معه ، وإلا فإن عبارته في حاجة إلى إيضاح .

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٤٩/١ .

(٢) أي القاضي أبو بكر .

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ٥٠/١ .

والحق يقال .. فصاحب البرهان قد أشار إلى مقصد عام وهام في مسألة الجمع بين المعاني التي يبدو عليها عدم التناسب في الظاهر ، وإن كان عزا ما ذكره إلى أنه نوع من الاستطراد ، قال : « ومنه الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطًا للسامع كقوله تعالى : ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (ص:٤٩) ، فإن هذا القرآن نوع من الذِّكر لما انتهى ذكر الأنبياء ، وهو نوع من التنزيل أراد أن يذكر نوعًا آخر وهو ذِكر الجنة وأهلها فقال : ﴿ هَـٰذَا ذِكْرٌ ﴾ فأكد تلك الإخبارات باسم الإشارة .

● **رد جديد على الشُّبهة :**

فيما مضى قدر كاف مما ذكره العلماء في هذا الموضوع ، فلندل بدلونا فيه بأمثلة غير التي تقدمت لهم .

ولنعمد أولاً إلى وحدة كاملة (سورة) من وحدات القرآن نتخذ منها شعاعًا لمعرفة ما في التنزيل الحكيم من أسس قوية للربط بين المعاني والأحكام بين الصياغات المختلفة .

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَـٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ (الغاشية:١-٢٦).

والمتأمل في هذه السورة يستطيع أن يحللها إلى العناصر الآتية :

١- مقدمة قصيرة من آية واحدة مصدَّرة باستفهام تشويقي لما بعدها ، ولإثارة الشعور والاستعداد النفسي لموضوع الحديث .

٢- إجابة على هذا الاستفهام التشويقي المثير ، وقد استعدت النفس لتلقي هذه الإجابة واشتاقت إليها .

وهذه الإجابة تشتمل على جزئين أساسيين :

أولهما : حديث عن المكذبين وما يعتريهم يوم الحشر من أسى ، وما أُعِدَّ لهم في النار من شراب وطعام .

ثانيهما : حديث عن المؤمنين الصادقين وما يغمرهم من سرور يوم الجزاء ، وما أعد الله لهم من مظاهر النعيم في دار الرضوان .

٣- عود للحديث عن المكذِّبين موبخًا لهم في أنهم صائرون إلى ما صاروا إليه ، وعندهم من الآيات ما لو تأملوها لآمنوا وصدَّقوا ، ولأنقذوا أنفسهم من العذاب المؤلم والمصير المهين .

٤- إرشاد للنبي عليه الصلاة والسلام ، يبيِّن له حدود وظيفته ، ويحثه على المضي في الدعوة غير آبه بكفر مَنْ كفر ، ولا إعراض مَنْ أعرض .

٥- خاتمة فيها للنبي تسلية ، وللمكذِّبين وعيد شديد ، لو تدبروه لكفوا عما هم فيه ولدخلوا في زُمرة المهتدين .

هذه أغراض خمسة رئيسية اشتملت عليها السورة الواعظة منذرة ومبشرة ومرشدة .

والمتأمل يدرك في وضوح أن علاقة العنصر بجزئيه ـ عقاب العصاة ، وإثابة المصدِّقين ـ بالمقدمة القصيرة المثيرة هي علاقة الجواب بالسؤال لأن هذا الاستفهام : ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ﴾؟ يلزمه سؤال من النبي عليه السلام ، فكأنه قال : لا ، لم يأتني ، فكان الجواب : ﴿ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ۝ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةٗ ۝ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ۝ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ۝ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ﴾ (الغاشية:٢-٧) .

وهذا هو الجزء الأول من العنصر الثاني .

أما الجزء الثاني فهو : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ .

وبهذا استوفى الحديث أركانه : سؤال وجواب عن أهل النار ، أو كالسؤال والجواب .

ويلاحظ الباحث أن الجزء الثاني ـ وهو الحديث عن أهل الإيمان ـ لم يعطف على نظيره المقدَّم عليه ، وهو الحديث عن أهل الكفر ، وكان من حقه أن يعطف عليه لأنه قسيمه .

فلماذا إذن قدَّم الحديث عن أهل النار ، وأخَّر الحديث عن أهل الجنة ولم يعطف اللاحق على السابق ؟ سؤال هام .

أما التقديم فبداهة أنه ليس للتكريم .. بل لداع بياني أراه فيما يأتي :

فقد تصدَّر السورة هذه الآية : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ . والغاشية هي القيامة بأهوالها الشداد أو هي النار المحرقة ، كما نص على ذلك المفسرون[1]، وفي التنزيل ما يقوى كِلا التفسيرين فقد جاء فيه : ﴿ يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ ﴾ (العنكبوت:٥٥) ، وجاء فيه : ﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (إبراهيم:٥٠) بَيْدَ أن إرادة القيامة هنا أولى للتقسيم الذي بعدها .

فإذا استقر ذلك فإن الأولى بالتقديم من الفريقين هو فريق النار لتتلاءم الألفاظ ، فالشدائد يناسبها خشوع الوجوه لا نعومتها ، إرهاقها لا سرورها ورضاها ، أما ترك العطف بين القسمين فأرجح أن يكون لتغاير الفريقين تغايرًا تامًّا في جميع الأحوال : كفر وإيمان ، صلاح وفساد ، ذل وإرهاق ، وكرامة وسرور ، نار حامية وجنة عالية ، عين آنية وعين جارية ...

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٥٩٢/٤ ، وأبو السعود : جـ ٤ .

ولو عطف الفريق الثاني على الفريق الأول لتوهم متوهم اشتراكهما في شيء أي شيء من أجله صح العطف ، ولدفع هذا التوهم ترك العطف في الظاهر ، وإن بقي مقدَّرًا منويًّا كما يرى بعض العلماء .

ولما كان القرآن كتاب هداية وإرشاد ، فإن منهج التربية الدينية والخُلُقية فيه يقتضي تقديم بعض النصح ليهتدي الضال بعد أن بان له ما أعِدَّ لأمثاله من العذاب .

لذلك ناسب أن يلفت القرآن أنظارهم لفتًا قويًّا إلى آيات القُدْرة التي تهدي إلى الإيمان فجاء قوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .

ذلك نصحه لمن ضَلَّ ..

والآن أفتظن أن القرآن يهمل صاحب الدعوة ـ محمدًا ﷺ ـ وقد أجهد نفسه في هداية هؤلاء .

لقد ذكر القرآن على سمعه هذه الآيات العظام التي يشاهدونها ولا يتأملونها ، يمرون عليها صباح مساء وهم عنها غافلون ، إنه متابع باهتمام هذه النُّذُر ، وهذا التبشير واع لما ذكره الله من آيات وأعرض عنها القوم .

ألم يذكرهم بها فلم يهتدوا ، ماذا بقي الآن ؟ أيستخدم معهم أسلوبًا آخر غير الكلمة والذكرى ؟ أيترك هذه الذكرى التي لم يقدِّروها حق قدرها ؟

لم يترك القرآن صاحب الرسالة في حيرة من أمره ، بل يقدِّم له التوجيه الرشيد فيلتفت إليه قائلاً : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ .

وهذا تثبيت لنفس النبي عليه السلام ، حين يبيِّن له ربه أن سلطان الذكرى هو عنوان الرسالة ، ولكن هناك خاطرًا لم يزل في نفس الداعي الحريص على هداية الناس المخلص لهم في النصح .

... وهؤلاء يا رب ... هؤلاء العتاة الذين لم يثمر فيهم نصح ، ولم يزعنوا لإصلاح .. وهنا يواصل القرآن إتمام الصورة : ﴿ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴾ .

ولكن كيف ذلك ؟

﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ .

وهنا يُسدل الستار ، مرحلة بدأت ثم انتهت ، وبين البدء والنهاية صور ومشاهد تلتئم كلها برباط وثيق .

كل مشهد يسلم للذي وراءه . . وهكذا تتابع المناظر في إطار واقعي أو إرشادي أو نفسي ، إطار مهما كانت خيوطه فإنه من وحدة واحدة .

ذلك دأب القرآن في الربط بين المعاني في السورة الواحدة .

ولنذكر مثالاً آخر من غير هذا النوع ، سورة نبحث عن العلاقة بينها وبين السورة التي قبلها والسورة التي بعدها حسب ترتيبها في المصحف ، وعن العلاقة التي بينها وبين السورة التي قبلها والسورة التي بعدها حسب ترتيبها في النزول ، أي نبحث فيها من جانبين ، هما اللذان أشرنا إليهما :

- **الكوثر وجارتاها في المصحف :**

أما السورة فهي قوله تعالى :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾

(الكوثر:١-٣). « صدق الله العظيم » .

هذه السورة ، هي أقل سور القرآن الكريم في عدد الكلمات والجُمَل ، وتتكون من خبر ، ثم أمرين معطوف ثانيهما على أولهما ، ثم خبر أيضا ، ومع قصرها هذا فإنها جمعت بين الأغراض الآتية :

١- الامتنان والمدح : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ المخاطَب محمد ﷺ يمتن الله عليه بأن أعطاه الخير الكثير ، ومن كان كذلك فهو للمدح أهل وموضع .

٢- الأمر بالطاعات من صلاة ونحر وتقرب لله وشكر له على نعمه : ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾.

٣- الذم ، فإن مَنْ كان أبتر لا عقب له فهو مذموم : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ .

هذه ثلاثة أغراض اشتملت عليها هذه السورة القصيرة ، ولا شذوذ في هذا الجمع ، وإنما إحكام والتئام .

فالمشركون كانوا يُعيِّرون النبي محمدًا عليه السلام بأنه أبتر لا عَقَبَ له ، فبيَّن الله أنه أعطى محمدًا عليه السلام الخير الكثير ، ثم أمره أن يصلي لله وينحر من أجله شكرًا له على هذه النعم .. جاء في كتب التفسير :

« أُعطيتَ ما لا غاية لكثرته من خير الدارين الذي لم يُعطه أحد غيرك ، ومعطى ذلك كله : أنا إله العالمين ، فاجتمعت لك الغبطتان السنيتان ، إصابة أشرف عطاء وأوفره من أكرم معط وأعظم منعم ، فاعبد ربك الذي أعزَّكَ بعطائه ، وشرَّفك وصانك من سوء الخُلُق ، مراغمًا لقومك الذين يعبدون غير الله ، وانحر لوجهه وباسمه إذا نحرتَ مخالفًا لهم في النحر للأوثان »[1] .

وبهذا تبدو قوة المناسبة بين : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ و: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ ، أما مناسبة الخاتمة : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ لما تقدمها من الآيتين المذكورتين فواضحة ، وذلك من وجهين :

أولهما : تكملة السرور للنبي عليه السلام ودفع أقاويل الشرك عنه ، فبعد أن بيَّنَ له أنه أعطاه الخير الكثير ، وأمره بفعل الطاعات شكرًا له ، أعلمه أن الأبتر هو مبغضك ورامِيك بالبتر ، لأن مَنْ شأنه مثل شأنك ليس بأبتر ، فجاءت الآية تذييلاً تعليليًّا لما قرر وثبت .

وثانيهما : رد على مَنْ رمى النبي عليه السلام بالبتر ، والسورة مسوقة لتنفي عن النبي عليه السلام هذه الصفة .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٤/٦٤٥ .

ذلك هـو نظام عـقـد المعاني في نفس هذه السورة ، وحدات متآلفة ملتئمة لا ينكر قوة ربطها لا جاهل أو معاند .

فما هما ـ إذن ـ جارتاها في المصحف ، وفي النزول ، وما الرابط بينهما ؟

والجواب : سبقت سورة «الماعون» سورة «الكوثر» في المصحف ، وسورة «الماعون» تقول :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ (الماعون: ١-٧). «صدق الله العظيم» .

ولحقت بها سورة «الكافرون» وهي تقول :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ (الكافرون: ١-٦) «صدق الله العظيم» .

في سورة «الماعون» جاء تفسير الذي يُكذِّبُ بالدين بأنه الذي يَدُعُّ اليتيم ويزجره ولا يعطف على المسكين ولا يحض على طعامه ، وفي هاتين الصورتين إهانة وحرمان .

وجاء فيها ـ كذلك ـ الدعاء بالويل والهلاك للمصلِّين الذين يسهون عن صلاتهم ويراءون الناس بعملها ، ولا يمدون يد العون لأحد ، وفي هاتين الصورتين ـ السهو والرياء ـ مخالفة لمبادئ الدين ، وفي منع الماعون بخل بغيض .

فجاءت سورة «الكوثر» تأمر النبي ﷺ بالصلاة ، تلك التي أضاعها المكذِّب بالدين ، وتأمره بالنحر لله ليتصدق على المحتاجين ، وفي هذه رعاية

لحق اليتيم والمسكين اللذين أضاعهما المكذِّب بالدين ، وفيه أيضًا تعريض بالمرائين في قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ﴾ حيث أمره الله بأن يصلي له لا لغيره ... وبأن ينحر لوجهه ، لا ليقال إنه كريم معطاء .. أرأيت إلى أي مدى تتوثق عرى السورتين .

هذه هي علاقة «الكوثر» بما قبلها : «الماعون» ، فما هي ـ إذن ـ علاقتها بما بعدها : «الكافرون» .

لقد جاءت خاتمة «الكوثر» ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ﴾ ، وشانئ الرسول عليه السلام هو الكافر وليس بينه وبين الرسول أسباب عداء سوى الإيمان الذي يدعو إليه الرسول ، والكفر الذي عليه الكافر .

وهذا النقص الذي كانوا يرمون به النبي عليه السلام ـ وهو منه براء ـ نوع من الحرب النفسية كانوا يوجهونها ضده علَّه يهون أو يلين ، ذلك هو ختام «الكوثر» فجاء مطلع «الكافرون» نداء إلى أولئك الكفار الشانئين قاطعًا عليهم كل أمل في مصالحة صاحب الرسالة مهما بلغوا من الكيد له : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴾ ... الآيات .

وهذه علاقة «الكوثر» بما بعدها ـ أرأيت نسجًا من القول محكمًا كهذا النسج . ؟ لا ... إنه القرآن وحده .

● الكوثر وجارتاها في النزول :

ثم ما هي علاقة «الكوثر» بما سبقها وما لحقها بحسب النزول ، لنرى ذلك ، جارتاها في النزول : «العاديات» و«التكاثر» ، الأولى سابقة عليها نزولاً ، والثانية لاحقة بها نزولاً ، وهي واسطة العقد .

والمناسبة بين الجارتين واضحة . فـ «العاديات» تقول :

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ۝١ فَٱلۡمُورِيَٰتِ قَدۡحٗا ۝٢ فَٱلۡمُغِيرَٰتِ صُبۡحٗا ۝٣ فَأَثَرۡنَ بِهِۦ نَقۡعٗا ۝٤ فَوَسَطۡنَ بِهِۦ جَمۡعًا ۝٥ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ

﴿ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ (العاديات: ١-١١).

« صدق الله العظيم »

ففي « العاديات » هذه حكم على الإنسان بأنه كافر بنعمة ربه لا يشكرها ، وأنه شاهد على نفسه بذلك ، وأنه مولع بحب الخير العاجل راء فيه كل أسباب السعادة والحياة المرضية .

فجاءت « الكوثر » تقول للرسول : إن الله أعطاك خيراً كثيراً ، فاعبده وانحر وتصدق ، فإنك ليس مثلهم تُعطَى فتبطر ، وتجمع المال وتحب منه المزيد ، لكن اشكر نعمة ربك بالطاعة والإنفاق .

أليست هذه أوثق رابطة ، وأنسب علاقة ؟

وتقول « التكاثر » :

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ (التكاثر: ١-٨).

« صدق الله العظيم »

الشانئ في سورة « الكوثر » يقول إن محمداً ﷺ صنبور ليس له ولد ولا عقب ، وهم يفتخرون بما لديهم من مال ، وما لهم من عترة وأولاد وأحفاد ، يتكاثرون فيما بينهم بعدد رجالهم وفرسانهم ، ذلك عندهم مقياس الفضيلة : مال وولد .

فجاءت هذه السورة تبيِّن لهم ضلال ما هم فيه ، وأن ما عندهم من الولد والمال لاه لهم عن عمل الخير ، شغلهم حتى ماتوا ، أو شغلهم التكاثر بَعَدِّ الرجال حتى ذهبوا يعدون مَنْ مات منهم ، وسيكون ذلك حسرة عليهم يوم القيامة .

أما محمد عليه السلام الذي يعيِّرونه بعدم العقب ، فقد أعطاه الله خيراً كثيراً فهو فيه لربه طائع غير شحيح ولا بخيل ، ولا هو شاغل له عن عمل الخير من طاعات لله كالصلاة والإنفاق وكالنحر .

أوَ ليست هذه رابطة جامعة وثَّقت عرى الجار بالجار ، فبدتا ـ أي السورتان ـ كأنهما وحدة واحدة .

ذلك منهج القرآن الحكيم ، انسجام والتئام بين الألفاظ ومعانيها ، التئام وانسجام بين الكلمة والكلمة ، التئام وانسجام بين الجملة والجملة ، التئام وانسجام بين الفقرة والفقرة ، التئام وانسجام بين السورة والسورة ، التئام وانسجام ساريان فيه جميعه ، وتلك دعامة من دعامات الإعجاز وآية من آيات الحكمة .

● **ملاحظتان مهمتان :**

أولاهما : أن القرآن يُفضِّل الجمع بين المعاني في الموضع الواحد دفعًا للسآمة وتجديدًا للنشاط من أن تسترسل النفس في معنى واحد يستبد بها ما دامت قارئة أو سامعة ، فقارئ القرآن وسامعه هما دائمًا في جديد من المعاني والمشاهد من قصص إلى تشريع ، ومن تشريع إلى تبشير ، ومن تبشير إلى إنذار ، ومن إنذار إلى عتاب ، ومن عتاب إلى تهديد ، ومن تهديد إلى تذكير ، وهكذا هو شبيه بالروضة الفيحاء لا تزال أمام ناظريك منها ألوان شَتَّى من الزهور ، وأنسام عذبة تحمل إليك أجمل الروائح وأطيب الشذا فتدفع عنك الإيحاش ، وتملأ نفسك سروراً وبهجة ، وتشجيك أنغام طيورها بأعذب الألحان .

وثانيتهما : أن الله تعالى ـ جَلَّت حكمته ـ يريد أن يُيَسِّر للناس الانتفاع بكتابه الكريم ويُسَهِّل لهم الاستفادة منه ، ولما كانت مقاصد القرآن متعددة فحرى به أن يبث تلك المقاصد في ثناياه وتضاعيفه ، حتى لا يتوقف الإلمام بها ـ كلها أو بعضها ـ على تتبع ما لا يتيسر تتبعه منه ، فأي سورة تقرأ تضع أمام ناظريك هدفين أو ثلاثة أهداف ، أو عدداً أي عدد من المواعظ والأحكام

والقصص والتهذيب والتوجيه والإرشاد ، وهو ـ بهذا ـ يلبي حاجة المتعجل ، ويلبي حاجة المتأني على حد سواء فقد رأينا أقصر وحداته : «الكوثر» أبت إلا أن تعرض عددًا من المعاني والمقاصد .

● **سياسة حكيمة :**

وتزيد هذه المقاصد والأهداف كلما طالت السورة ، كالبقرة وآل عمران والنساء .

وهذه سياسة حكيمة فارق القرآن بها مؤلفات البَشر من أبعد طريق ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾ (القمر:١٧).

٤- الإقناع والإمتاع :

«في النفس الإنسانية قوتان ، قوة تفكير ، وقوة وجدان ، وحاجة كل واحدة منهما غير حاجة الأخرى ، فأما إحداهما فتنقب عن الحق لمعرفته ، وعن الخير للعمل به ، وأما الأخرى فتسجل إحساسها بما في الأشياء من لذَّة وألم ، والبيان التام هو الذي يوفى لك هاتين الحاجتين ، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين فتجد حظها من الفائدة العقلية ، ومن المتعة الوجدانية معًا» .

● **الناس ثلاثة أنواع :**

وليس هذا القدر في السلوك الإنساني القولي بمستطاع . فالناس ـ هنا ـ كيف كانوا أنواع ثلاثة :

الأول : فريق يجلو لك الحقيقة ناصعة بيضاء ـ هذا همه ـ ولا يبالي ما أصاب تعبيره من جفاف ، ونبو عن الطباع ، وأنت حين تقرأ لهذا الفريق تكون كمن ينحت في الصخور بأطراف أصابعه ، ليستخرج منه معدنًا نفيسًا قَلَّ أو كثر ، ورواد هذا الفن هم الفلاسفة والعلميون والعقليون ، ومَن على شاكلتهم .

الثاني : فريق يمتع عاطفتك بما يثيره من صور وخيالات في ذهنك وشعورك ، ولا ينفك يسبح بك بين صور الفن والخيال حتى ينسيك ـ إذا صدق في الشعور ـ حدود الزمان والمكان فتنطلق معه في دنيا غير دنياك ،

يسحرك بيانه ، وتطويك أنغامه ، فإذا سرى عنك وأُبْتَ من سبحك لم تجد في حوزتك شيئًا إلا ظلالاً باهتة لمؤثر غامض .

الثالث : فريق يمسك العصا من الوسط ـ كما يقولون ـ فيجمع بين النزعتين ، ويمزج بين الطريقتين ولكنه بمنأى عن التوفيق ـ مع شدة حرصه عليه ـ فأحيانًا تأتي عباراته عاطفية على حساب العقل ، وأخرى تأتي عقلية على حساب العاطفة ، فإن رأيتَ مَن يقضي بينهما بالعدل في موضع ، فاعلم ـ مقدمًا ـ أن عهده بذلك لن يطول ، وأن ما رأيته منه من توفيق للعدل فلتة لم يجر بها طبع ، وندرة لا تتكرر كثيرًا .

● **المستحيل .. ممكن ! ؟**

وهذا الذي استحال على الناس ، أو كان في حكم المحال ، تراه أروع ما يكون في الذِّكر الحكيم ، فيه حظ النفس وعواطفها ومشاعرها ، وفيه مطلب العقل وحججه وبراهينه ، تراهما متجاورين متآلفين دون أن يطغى أحدهما على الآخر ، وإن برز أحدهما في موضع فإن تلك سياسة بيانية ، ومقتضى عام .

● **منهج خُلُقي حي :**

اقرأ ـ مثلاً ـ قوله تعالى في تشريع القصاص : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَى ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ** ﴾ (البقرة:١٧٨) .

وانظر إلى الاستدراج إلى الطاعة في افتتاح الآية : ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ...﴾.

وترقيق العاطفة بين الواترين والموتورين في قوله : ﴿ **أَخِيهِ** ﴾ وقوله : ﴿ **بِٱلۡمَعۡرُوفِ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **بِإِحۡسَٰنٖ** ﴾ .

والامتنان في قوله : ﴿ **تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞ** ﴾ .

والتهديد في ختام الآية : ﴿ **فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ** ﴾ .

ثم وازن بين الاستدراج إلى الطاعة في مطلع الآية ، والتهديد في خاتمتها ، وأنزل ذلك من نفسك .. وانظر حالها كيف تكون .

ثم انظر في أي شيء يتكلم القرآن ـ هنا ـ أليس في فريضة مفصلة ، وفي مسألة دموية ، وجناية من أخطر جنايات النفس ؟

وسبيل هذا أن يُصاغ في قوانين ، تحدد الجريمة ، وتضع أساس المعاقبة عليها في كلمات جافة لا تعرف الليونة ، ولا تميل إلى المهادنة .

لكن منهج التربية والتوجيه الخُلُقي في القرآن الحكيم هو سر ذلك البيان الرفيع الذي يتيح لصاحب الحق الأخذ بحقه ، وفي نفس الوقت يهديه للتي هي أقوم . ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (الشورى:٤٠) .

وقد نهجَ القرآن هذا المنهج في جميع تشريعاته : في الطلاق والظَهَار والإيلاء ، في تقسيم الإرث والتركات ، في تشريع الصيام والحج والزكاة ، في إبرام العقود ووضع المواثيق ، في مباشرة الحقوق ومعاملة الأسرى والرقيق ، في كل أولئك يضع ضمانات العدالة ، وأسس ضبط النفس .

فتراه يقول عندما أباح للمعتدى عليه أن يأخذ بحقه : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة:١٩٤).

فالآية هنا تبيح لمن اعُتدِيَ عليه أن يَعتدي على المعتدي .. ولكن استعمال هذا الحق أحيط بثلاث ضمانات أو ضوابط :

١- أن يكون الاعتداء الواقع من المعتدَى عليه ، مثل الواقع من المعتدِي حسما للتمادي من أيهما .

٢- وقد سمى الثاني اعتداءً ، وكان حقه أن يسمى : جزاءً . لماذا ؟ .. لأن اللفظ الثاني يغرى المظلوم على التمادي ، أما الأول فإنه يشعر وهو يباشر حقه في الرد على مَن ظلمه ، أنه يباشر اعتداء ، فيكف ولا يطيل .

٣- الأمر باتقاء الله ، ليقف المجازِي عند حده فلا يزيد في انتصاره لنفسه من ظالمه عما وقع به هو من الظلم .

وقد أكَّد هذا المعنى بقوله تعالى : ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ ترغيبًا لهم في العدل ، والوقوف عند المطلوب المباح ومَنْ مِنَ المخاطبين لا يريد أن يكون الله معه .

ومثل هذا التوجيه قوله تعالى : ﴿ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ (الإسراء:٣٣) .

وقد لا تكون هنا غرابة فالنزاع بين مسلمين مطلوب منهم أن يحسنوا المعاملة فيما بينهم .

● التسامح مع المخالفين :

لكن الباحث يرى أن هذا منهج عام للقرآن فيما يحسن فيه ترقيق العواطف ، قال سبحانه : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:١٠٩).

فالعفو والصفح مطلوبان حتى مع المخالفين ، ما دام الموضع ليس قتالاً ومناجزة مطلوبًا فيه الغِلظة والعنف .

وانظر أيضًا إلى هذا التوجيه : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة:٦) .

فالمجار ـ هنا ـ مشرك ، والمجير رسول الله ، والآمر بالإجارة هو الله ، هذه أسس عامة في المعاملة .

● عودة للتشريع :

ثم انظر إلى القرآن حين يُشرِّع الطلاق ، فإن الأمر بالمعروف ، والتسريح بالإحسان ، والعفو .. مواقف لا يكاد ينفك عنها نص من نصوص التشريع فيه ، قال تعالى في سورة البقرة :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:٢٢٨-٢٣٢).

هذه أحكام الطلاق وآدابه ، تتحدث عنها هذه الآيات ، فلم يسلك في بيانها الأسلوب التقريري الجاف ، كما هو الشأن في الحديث عن الأحكام خارج القرآن ، وإنما جعلت الآيات للعاطفة والنفس نصيبها من الخطاب ، حثًّا لها على التيقظ والعمل ، كلما اقتضى المقام ذلك .

وقد استعان القرآن على حمل المخاطَبين والمتنازعين للاعتراف بالحقوق والإنصاف في الخصومة بعبارة تُشوِّق النفس إلى الإنصاف ، لأنه يثيرها ويستكشف ما في خبايا النفس من أسرار لا يُتوصل إليها بالعنف كما يُتوصل إليها بالملاينة والإثارة كما جاء في هذه الآيات .

● **لقطات مثيرة :**

تأمل هذه اللقطات : ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ﴾ .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِي عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

﴿ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ .

﴿ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ .

﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

● **نصيب العاطفة :**

ونصيب العاطفة من هذا البيان جانبان :

١- أن يذكر الأمر الأولى بالاعتبار فيثير القرآن في العاطفة مشاعر النبل للإقبال عليه والعمل به .

٢- أن يذكر الأمر الأولى بالترك أو الذي لا يليق ، فيثير فيها مشاعر النفور لتنأى عنه .

وفي بعض الألفاظ دلالة مشعة على كِلا الجانبين : الترغيب والتنفير ، فعند حدوث النزاع يسمى الإبقاء على الحياة الزوجية « إمساك »، والإنسان لا يمسك إلا بشيء له فيه منفعة .

● **إغراء :**

وهذا إغراء على الحفاظ بكيان الأسرة ، والعدول عن الطلاق الذي هو أبغض الحلال إلى الله ... وضرورة تشريعية لا يُلجأ إليها إلا في حالة اليأس التام من إصلاح الأمور .

وقد صرَّح القرآن نفسه بهذا المعنى في موضع آخر ، فقال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (النساء:١٩) .

كما سمى القرآن الطلاق «تسريح» لا ترغيبًا فيه ، وإنما لما يجب على المسلمين من حُسن المعاملة ، وجمال الكيفية التي يوقعون بها الطلاق حيث اقتضته الضرورة ولا بديل له .

لأن التسريح في الأصل : الإرسال للمرعى ، ففيه إيحاء للأزواج العازمين على الطلاق أن يُحسنوا معاملة زوجاتهم ، ولا يُسيئوا إليهن ، ولم يكتف القرآن بالدلالة اللغوية للفظ «تسريح» حتى اشترط أن يكون : «تسريح بإحسان» كما وصفه على لسان نبيه محمد ﷺ يخاطب زوجاته : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا** ﴾ (الأحزاب:٢٨).

قال الراغب : «السرح : شجر له ثمر ـ وسرحت الإبل : أصله أن ترعيه السرح ، ثم جُعِلَ لكل إرسال في الرعى .. والتسريح في الطلاق نحو قوله تعالى : ﴿ **أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ** ﴾ (البقرة:٢٢٩) . وقوله : ﴿ **وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا** ﴾ (الأحزاب:٤٩) مستعار من تسريح الإبل كالطلاق في كونه مستعارًا من إطلاق الإبل»[١] .

وقال في مادة «م س ك» : «إمساك الشيء التعلق به وحفظه قال تعالى : ﴿ **فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ** ﴾ (البقرة:٢٢٩) ، وقال : ﴿ **وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ** ﴾ (الحج:٦٥) ، وقال : ﴿ **فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ** ﴾ (الزخرف:٤٣)»[٢] .

فهذان اللفظان اللذان يترددان كثيرًا في تشريع الطلاق حظ النفس منهما أكثر من حظ العقل ، وهما مختاران اختيارًا دقيقًا للدلالة على المراد منهما .

ثم انظر مرة أخرى إلى هذه الصورة : ﴿ **فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ (البقرة:٢٣٢).

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ص ١٢٩-٢٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٨ .

وتأمل كلمات : «تعضلوهن» ، «تراضوا» ، «بالمعروف» . قال الراغب في مادة «ع ض ل» : «العضلة : كل لحم صلب في عصب ، ورجل «عضل»: مكتنز اللحم ، وعضلته : شددته بالعضل المتناول من الحيوان نحو : عصبته ، وتجوز به في كل منع شديد قال: ﴿ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ ﴾ قيل : خطاب للأزواج . وقيل : للأولياء»[1] .

والظاهر أن حقيقة التعبير هنا هو المنع ، لكنه استعير له اللفظ الوارد في الآية لما فيه من إيقاظ العاطفة ، وتحريك النفس نحو ما هو مطلوب .

● **ترقيق العاطفة :**

وهذه صورة أخرى من صور ترقيق العاطفة عند النزاع في الطلاق :

قال سبحانه : ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٣٦،٢٣٧).

الآية الأولى خطاب للمتنازعين قبل المس ، والحال أنهم لم يفرضوا للنساء فريضة فالملابسة هنا بينهم ضعيفة ، ومع أن الآية قد نفت عنهم الحَرَج إذا طلَّقوا في هذه الحال فإنها أوجبت عليهم إمتاعهن كل حسب قُدرته غنيًّا أو فقيرًا ، وسمى هذا المتاع : ﴿ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، وهذا التعبير يثير عند الأزواج مشاعر المروءة والنخوة ويستل من النفوس السخائم فتبذل ما وجب عليها في رضا وحنان ، والمستفيد هنا المطلَّقات .

والآية الثانية خطاب لهم ـ كذلك ـ والحال أن الطلاق وقع قبل المس وقد فرضوا لهن فريضة ، فعلى الزوج ـ إذن ـ أن يبذل لها نصف ما فرض ، هذا

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني ، ص ٣٣٨ .

حق للمطلَّقة واجب على المطلِّق ، فلها أن تستمسك بحقها ، وعليه أن يؤديه لها .

ذلك أصل المسألة وأساس القضاء الذي لا يجوز له أن يعدل عنه ، لأنه مأمور بأخذ الحقوق وإعطائها لمستحقيها .

● **الدعوة إلى الإصلاح :**

لكن القرآن الذي يفسح المجال دائمًا أمام المتنازعين للتسامح والتصالح ، لأنهما في النهاية يؤديان إلى الموّدة والإخاء بينهم ، لم يقف عند حد بيان أصل المسألة ، فتراه بعد أن قررها يقول : ﴿ **إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ** . . . ﴾ .

فأداء النصف واجب على المطلِّق ، وللمطلَّقة أن تعفو عنه كله أو جزئه ، أو يعفو وليها .

فهذا الاستثناء أول درجة في سلم المصالحة ، ولكن هل القرآن وقف بالمسألة عند حد الاستثناء؟ لو كان الأمر كذلك لكان وافيًا في الإذن بالتصالح ، والأخذ بالحسنى من جانب صاحب الحق ، لكن القرآن لم يقف بها عند هذا الحد ، بل ذكر بعد الاستثناء ما يُرَجِّح العمل به ، ويُرَغِّب المطلَّقات أو أولياءهن فيه ، فقال : ﴿ **وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ** ﴾ .

أليس في ذلك ترغيب شديد إلى العفو بين المتنازعين ، إنه كذلك ، وهنا تبدو المسألة قد كملت من جانبيها القضائي والاستثنائي ، أو القانوني والأخلاقي ، مع الترغيب في الثاني دون الأول وليس عند هذا الحد ـ أيضًا ـ يقف القرآن .

بل يُوجِّه إرشاده إلى طرفي النزاع لا صاحب الحق منهما ، ولا مَن عليه الحق ، إرشاد جامع للأخذ بالحُسنى : ﴿ **وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡ** ﴾ .

نصيحة غالية لا أتصور المتنازعين عند سماعها إلا آذانًا واعية ، وقلوبًا فسيحة ، وأنفسًا صافية لم يبق فيها من آثار الخصومة إلا الذِكرى .

وتأتي ـ بعد ذلك ـ الفاصلة فتضع المتنازعين تحت رقابة دقيقة لا يعزب عنها شيء ، تكافئ المحسن بالإحسان .. والمسيئ بمثل ما فعل : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾ .

وهنا يُسدل الستار ، وتتم الصورة من جميع مقوِّماتها : وضوح التشريع وأصول الحكم ، والترغيب في العفو والإحسان ، والتنفير من الظلم والإساءة .

هذه مُثُل من الأحكام والتشريع القرآني ، لمسنا فيها ـ بإيجاز ـ المنهج الذي يسير عليه القرآن في بيان تلك الأحكام ، إنه لم ينح بها النحو التقريري كما هو الشأن في مثل هذه القضايا ، وإنما خاطبَ بها النفس الإنسانية بكل مدركاتها : العقل والمنطق والعواطف والمشاعر ، دون أن تحس بضعف في الصياغة ، ولا قصور في المعنى ، يبيِّن للإنسان فيه مصادر أخذه ، ومجالات إعطائه ، مُحبِّبًا إلى نفسه ومشاعره وروحه عمل الخير ، ومُكَرِّهًا لها عمل ما هو دون الخير ، من شر خالص ، أو خير خلاف الأولى .

- **الجدل القرآني :**

ولكننا لا نقف عند حد الأحكام والتشريع فيه ، لتأييد هذه السمة الأسلوبية في القرآن التي أسميناها : الإقناع والإمتاع .

بل نستعرض مثلاً في مجال آخر ، غير الأحكام والتشريع ، وإن كان الشأن فيه أن يسلك في بيانه المنهج التقرير العقلي ، ذلك المجال هو : الجدل القرآني لخصوم الدعوة الإسلامية .

وموضوعات هذا الجدل متعددة لكننا نختار منها موضوعين اثنين لنرى كيف جادلهم فيها القرآن ، وأي منهج سلك .

وهذان الموضوعان هما : قضية التوحيد ، وما يتعلق بها ، ثم قضية البعث وما يتعلق بها .

- **قضية التوحيد :**

جاء القرآن ينكر على المشركين ما هم فيه من عبادة الأصنام ، وفكرة تعدد الآلهة ، وأن يكون هناك صلة بين الخالق الحقيقي المخصوص بالعبادة ، وبين

هذه الأصنام التي يتقرَّبون بها ـ في زعمهم ـ إلى الله ، كما حكى عنهم القرآن : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ (الزمر:٣) .

وكانت هذه هي القضية الأولى التي يواجهها الإسلام ، ولقد قطع القرآن ـ في مكة ـ شوطًا كبيرًا في محاربة هذا الضلال ، لافتًا الأنظار إلى الحقيقة ، ممثلاً وواعظًا ، مجادلاً ومحاورًا ، منذرًا ومبشرًا ، مناقشًا وهاديًا .

كان القوم يبررون ما هم عليه بحجج واهية تتلخص في :

١- التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم .

٢- أن هذه الآلهة وسيلة للتقرب إلى الله .

٣- أن فكرة وحدة الخالق أمر مستحدَث .

● عرض مقولة المشركين :

ولقد حكى القرآن طرفًا من شُبهاتهم لأول مرة في سورة «ص» المكية ، حيث إن السور التي نزلت قبلها وهي :«اقرأ ـ القلم ـ المزمل ـ المدثر ـ المسد ـ التكوير ـ الأعلى ـ الليل ـ الفجر ـ الضحى ـ الشرح ـ العصر ـ العاديات ـ الكوثر ـ التكاثر ـ الماعون ـ الكافرون ـ الفيل ـ الفلق ـ الناس ـ الإخلاص ـ النجم ـ عبس ـ القدر ـ الشمس وضحاها ـ البروج ـ التين ـ قريش ـ القارعة ـ القيامة ـ الهُمَزة ـ المرسلات ـ سورة ق ـ البلد ـ الطارق ـ القمر»[1] .

لم يرد فيها شيء من مقولاتهم في هذا المجال ، وقد صوَّر لنا القرآن في سورة «ص» اعتراضهم وما استندوا عليه من دليل فقال : ﴿ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾ (ص:٥-٨) ؟.

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي : ١٩٣/١ .

فكرة التوحيد عند هؤلاء القوم فكرة عجيبة ، صاحبها مختلق لها ، لأن الرواية لم تنقلها لهم ، إنها لمؤامرة .. فليثبتوا على آلهتهم ، هذا تصورهم للموضوع .

والمِلَّة الآخرة التي اتخذوها سنداً هي مِلَّة عيسى عليه السلام ، لأن النصارى حرَّفوها فصاروا مثلثين لا موحدين .

أو هي مِلَّة قريش وما كانت عليه من عبادة الأصنام[1] .

● **موقف القرآن من هذه الشُّبهة :**

وكان موقف القرآن من هذه الدعاوي هو موقف المنكر المبطل لما يدَّعون ، قال :

﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ۝١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۖ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ۝١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ (ص:٨-١٤).

وفي هذا الرد يبدأ القرآن بحقيقة هامة ، ثم يمضي في الإنكار والتوبيخ لهؤلاء المعاندين فيبيِّن أولاً أنهم في شك من ذكر الله ، وأن هذا الشك سيزول إذا ذاقوا العذاب ثم يأخذ في توبيخهم فيقول :

أهؤلاء يملكون خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب فيصيبوا بها مَن يشاءون ويصروفها عمن يشاءون ؟ ويتخيروا النبوَّة لبعض صناديدهم ويترفعوا بها عن محمد عليه السلام ؟ لا ... هم لا يملكون ذلك ، إذن فليس لهم من الأمر من شيء فليخسأوا .

أم لهؤلاء مُلك السموات والأرض وما بينهما ؟ إن كان لهم فليرتقوا في الأسباب ويصعدوا المعارج إلى العرش فيستولوا عليه ، ويدبروا الأمر .

---

(١) ذكر هذين القولين الزمخشري في تفسير الكشاف : ٥٦/٤ .

إذن فليس لهم مُلك السموات والأرض وما بينهما فلذلك لم يرتقوا في الأسباب .. إذن فيلخسأوا .

ثم يبيِّن لهم حقيقة أمرهم ، وسوء مصيرهم ، فيقول : ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ .

وفي هذا تسلية وقوة عزم للرسول عليه الصلاة والسلام ألا تبال بما يقولون فإن مصيرهم الهزيمة ، ولن ينتصروا عليك بحال .

ويكمل الرد بسوق أمثلة ووقائع تاريخية حيث كذَّبت أقوام الرسل ، فهلكوا .

وينتهي دور سورة «ص» في أن هؤلاء ضالون في عقيدتهم متطفلون فيما ليس لهم فيه ، عاجزون عن امتلاك أمرهم فضلاً عن عجزهم عن امتلاك شئون غيرهم ، وأنهم لا محالة مهزمون .

ثم يجول معهم القرآن جولات أخرى مبيِّنًا لهم أن هذه الأصنام التي يتخذون منها آلهة يعبدونها ما هي إلا أشكال جامدة لم ولن تنفع ، ولم ولن تضر .

● **طريقان لدعوة الناس إلى الحق :**

وهذه الحقيقة مرة يخاطبهم بها خطابًا مباشرًا ، ومرة يسوقها لهم على لسان الأنبياء والرسل السابقين :

أولاً : الخطاب المباشر ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ (الأحقاف:٤) .

أي وربي لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية في إبطال عقيدة الأصنام لكان القرآن قد أبطلها من أساسها بحيث لم تقم لها حُجَّة بعد ، لا عند عابديها ، ولا عند غيرهم من الناس .

ولما وسع المخالفين ـ لو أنصفوا ـ إلا التسليم والإذعان ، عرض واضح ودليل قاطع .

● **استدراج يؤدي إلى العجز :**

فقد نصبت الآية التماثيل والأصنام أمام النظَّارة ، لافتة أنظار أتباعها إليها ، وقد حضرت في الذهن والخيال أشكالاً جامدة صماء خالية من كل سبب للحياة ، أحضرت ـ هكذا ـ ليحكم عليها وهي حاضرة .

أجل هذه هي : تماثيلكم وأصنامكم التي تدعونها من دون الله ، أليس كذلك؟ إذن فإنَّا سائلوكم أسئلة فأجيبوا عليها ، ولتكن إجاباتكم مقرونة بالدليل والشاهد .. اسمعوا إذن :

١- هذه هي الأرض ممتدة واسعة ، فيها أنهار وبحور ، فيها زروع وكروم ، فيها منازل وجبال وصحارى ، فيها ذلك وفيها غير ذلك .

فأروني ماذا خلق أصنامكم منها ، كلها أو بعضها ؟ إن زعمتم أن شيئًا من ذلك لهم فأقيموا الدليل .. ؟

لندع الأرض وما عليها ...

هذه السموات الطِّباق ، خلقها الله ورفعها ـ هكذا ـ في القضاء ليست لها عمد ترتكز بها على الأرض .

نبئوني ألأصنامكم شِرك فيها ؟ ما هو نصيبهم منها ؟ وكيف ؟

إن زعمتم ذلك فأتوا بالدليل .. وإلا فأنتم مضللون مخدوعون ، ولا يحق لكم أن تستمروا على هذا الضلال ، والداعي يدعوكم إلى الصواب .

أتدرون ما هو الدليل الذي نطلبه منكم على صحة دعواكم ؟ إن هذا الدليل يتلخص في خطوتين أيسرهما عسير ؟

الأولى : ﴿ **ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ** ﴾ هل في مقدوركم ذلك ؟ ألا فافعلوا وإنَّا لمنتظرون .

أعجزتم ؟ .. نحن نعذركم لأننا نعلم أنكم عاجزون ، فنخفف عنكم في كيفية الدليل ، دعوا الكتاب ... حيث لم تأتوا ولن تأتوا به .. وأتوا بأيسر الأمرين .

الثانية : ﴿ أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ أثارة أية أثارة من علم تؤيدكم ، أهذه صعبة ؟ صعبة كذلك ـ أم مستحيلة .. إنها مستحيلة .

أعجزتم عن هذه وتلك ، فاعلموا الآن أنكم كاذبون في دعواكم .. لأنكم لم تشفعوها بدليل ، فكفوا إذن ولا تسترسلوا في أباطيلكم .. وضعوا نُصب أعينكم قول الشاعر :

وَالدَّعَاوِيَ مَا لَمْ يُقِيمُواْ عَلَيْهَا بَيِّنَاتٍ أَبْنَاؤُهَا أَدْعِيَاءُ

هذه جولة حكيمة مفحمة ، لم يحاورهم القرآن فيها محاجيًا أو ملغزًا ، وإنما حاورهم في وضوح ، وفي سهولة .. اتخذ من الأرض ومن السماء وحدات للقياس ، وألزمهم الحُجَّة في نص لم تزد كلماته على التسع والعشرين كلمة .. انتصر عليهم وتركهم منهزمين .

• نماذج أخرى فيها دلالة التوحيد :

ثم تتوالى بعد الجولات على نفس الصورة من الوضوح والسهولة ، ولفت الأنظار إلى حقائق الكون ، ومظاهر الطبيعة التي هي وحدات القياس الوجداني والمنطق الروحي ، بعيدًا عن التعقيد والغموض .

﴿ أَمِ اتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:٢١-٢٤) .

أو : ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (المؤمنون:٩١) .

أو : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ

ٱللَّهِ ۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ ۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾

(النمل:٥٩-٦٤) .

● **حوار حي :**

أرأيتَ حوارًا مثل هذا الحوار ؟ أرأيتَ بيانًا أوضح من هذا البيان ، أرأيت قياسًا أصوب من هذا القياس ، أرأيتَ براهين أقطع للشبهات ، وأفحم للخصم وأثبت للمطلوب من هذه الأقيسة ؟

قل لي بربك : أي جزئية من هذا القياس يمكن أن ينكرها الخصم إنكارًا يستطيع أن يجازيه عليه منصف ، أليست هذه حقائق مسلمة ، وقوانين راسخة رسوخ الجبال : ﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا . . . ﴾ .

انظر كيف اجتمع الاستدلال والتهويل والاستعظام في هذه الكلمات القليلة .. بل الدليل نفسه جامع بين عمق المقدمات ووضوحها ، ودقة التصوير لما يعقب التنازع من الفساد الرهيب ، إن الدليل هنا : برهاني خطابي شعري معًا[1] .

فهل تجد مثل هذا في كتاب من كتب الحكمة النظرية ؟

لكن القرآن ينهي الخلاف في هذه القضية في كلمات لا تبلغ عدد أصابع اليدين ، فوازنها بما كتب عنها في أسفار الفلسفة ، وبحوث الحكماء .

---

(١) النبأ العظيم : الدكتور محمد عبد الله دراز .

● **منطق تصويري :**

نحن لا نشاهد في الكون فسادًا ، وإنما نظامًا ودقة ، وحياة وحركة ، كواكب تدور في أفلاكها في نظام عجيب ، وسموات مظلة ، وأرضًا مقلة ، وأنهارًا جارية وريحًا سارية .

ذلك هو النظام .. إذن فالله واحد لا شريك له ، وإلا لسقطت السموات على الأرض ولتعطلت الكواكب ، وغار الماء ، مقدمات الدليل ثابتة مسلّمة ، فالنتائج ـ كذلك ـ ثابتة مسلّمة ... وليس وراء ذلك مطلب .

والمثال الثاني مثل الأول .. لو كان لله ولد ، لكان معه إله ، ولو كان مع الله إله ـ سبحانه ـ لحدث النزاع ولذهب كل إله بما خلق .

لكن شيئًا من ذلك لم يحدث .. إذن فالله واحد لا شريك له .

● **الكون دلالة التوحيد الكبرى :**

أما المثال الثالث ، فقد طوَّف في أرجاء السموات والأرض والتقط وصوَّر واستدل وذكر ، في أسلوب خطابي العبارات ، استدلالي الموضوعات ، يقيني المقدمات ، الصورة تلو الصورة ، والمشهد إثر المشهد ، والدليل عقب الدليل ، في حركات سريعة خاطفة .. ووثبات صائبة .

«وهكذا تشترك مشاهد الأرض والسماء مع ما يقع لهم من الأحداث كل يوم .. مع الأحاسيس الفطرية التي تلجئ الإنسان إلى القوة الكبرى عند الشدة تشترك في مخاطبة الحس والخيال ولمس البصيرة والوجدان ، لتركيز عقيدة التوحيد في النفوس .. ومثل هذا كثير جدًّا في القرآن ، مكرر مع تنوعه ـ تكرر صور القيامة ومشاهد النعيم والعذاب»[1] .

● **ضعف الأصنام :**

ونذكر مثلين ضربهما القرآن لضعف الأصنام ، بعد أن شنَّع على هذه الأباطيل مما خاطب الله به المشركين خطابًا مباشرًا :

---

(١) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ص ١٨٨ .

obeikan.com

أولهما : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤١) .

ذلك مثلهم ... فهل بيت العنكبوت بغريب عن أفكارهم ، أم هو شيء مألوف لهم يرونه صباح مساء ، وهل في بيت العنكبوت قوة يأوى إليه الضعف أم حصانة يلوذ بها واجف[1] ؟ ليفكروا ..

ثانيهما : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ (الحج:٧٣) .

ذلك مثلهم في عدم النفع ، وهذا مثلهم في عدم الإيجاد أو جلب النفع لأنفسهم ، وإن شاءوا فليجربوا فعناصر القصة تتألف من الأصنام والذباب وفتات الطعام فليغروا الذباب بحمل شيء منه ، وليطلبوا من الأصنام إعادته ، فهل يمكنهم ذلك ؟ فليفكروا .

- **نُذُر على ألسنة الرسل :**

ثانيًا : ما ساقه الله على لسان رسله ..

قال سبحانه على لسان إبراهيم : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ (الشعراء:٦٩-٨٢) .

---

(١) علمت من برنامج «الغلط فين» أن خيوط نسيج العنكبوت تستعمل لرقتها في صناعة الفضة .

● **إبراهيم يجادل قومه :**

هذا طرف من قصة إبراهيم مع قومه ، إنه يسألهم عمن يعبدونه ليبيِّن لهم أن هذا المعبود لا ينفع ولا يضر .

قال لهم : ما تعبدون ؟ قالوا له : نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين ، قال لهم : هذه الأصنام التي تعبدونها ، وقد اتخذتموها أربابًا من دون الله هل لهم سمع يسمعونكم به إذا دعوتم ؟ . وهل لهم قدرة على النفع والضر فتعبدوها طمعًا في النفع وخوفًا من الضر .

قالوا له : بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ، وهنا يظهر التقليد الأعمى في فكرة الأصنام .. مجرد أن آباءكم كانوا يفعلون ذلك .

والتقليد حجة ضعيفة .. استدرجهم إليها إبراهيم في حواره معهم ، ومشركو مكة يسمعون ويرقبون الأحداث إلى أي مصير تنتهي ، فالقضية قضيتهم ، والليلة بنت البارحة .

ثم يتابع إبراهيم عليه السلام الحوار بعد أن استدرجهم إلى الاعتراف بعجز آلهتهم : أرأيتم هذه الأصنام التي تعبدونها أنتم وآباؤكم الأقدمون ، إنهم عدو لي إلا رب العالمين ، وقوله : «عدو لي» تصوير للمسألة في نفس ليعلموا أنه نصحهم بما نصح به نفسه .

لأن رب العالمين هو الذي خلقني ، وهو الذي خلق كل شيء ، وهداني ، وهو القادر على أن يؤتي كل نفس هداها ، وهو يطعمني ويسقين ، ويطعم كل شيء ويسقيه ، ويشفيني إذا مرضت ، ويشفي كل مريض .

وهو الذي يميتني ويحييني ، ويميت كل حي ويحييه ، والذي أطمع أن يغفر لي خطاياي يوم الدين .

وذلك لأنه «الله» القادر على كل شيء ، المالك لكل شيء . . فليس ما تدعونهم ـ وقد علمتم شأنهم ـ مثله ، وليس كمثله شيء .

أفي هذا التوجيه قسر للعقول ؟ أو فيه إلغاء لفكر الإنسان الحر ، مهما كان موقفه من العقيدة التي يدعو إليها الداعي .

فليقارنوا بين مَن دَعوهم آلهة ، وبين الإله الحق وليختاروا لأنفسهم ما يحلو .

● **وهود يجادل قومه :**

وقال سبحانه على لسان هود : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ (هود: ٥٠-٥٨) .

في هذه الآيات الثماني تبدأ حياة أمة ، ثم تنتهي ، أُمة ضلت طريق الحق ورسولها يدعوها إلى ذلك الطريق ، أخلص لهم رسولهم ـ هود ـ في النصح والإرشاد ونهاهم عن عبادة الأصنام ، وأمرهم أن يعبدوا الله ـ وحده ـ ويستغفروه ، فإذا فعلوا هطلت عليهم نعمه :

يرسل السماء عليهم مدراراً فتجود الأرض بالخيرات ليأكلوا هم وأنعامهم من فضله ويحيوا حياة سعيدة .

ويزدهم قوة إلى قوتهم ، فلا يطمع فيهم طامع ، ولا ينال منهم عدو .

لكنهم لووا أعناقهم قائلين : ﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود:٥٣) .

ويرمونه بالسوء من بعض أصنامهم ، فيبرأ منهم ، ويُشهد الله ويُشهدهم على براءته من شركهم .

ثم يغريهم على أن يكيدوه مجتمعين إن استطاعوا هم وآلهتهم ، وليفاجئوه بهذا الكيد دون أن ينظروه .

وبيَّن لهم أنه توكل على الله ربه وربهم ، الذي هو آخذ بناصية كل دابة ، رب له الغلب وجنده هم المنصورون ، وصراطه هو المستقيم .

وبيَّن لهم ـ كذلك ـ أنه قد أبلغهم رسالة ربه فإن أعرضوا أهلكهم الله وبدَّل غيرهم ولا يضروه شيئًا .

- **نجاة وهلاك المخالفين :**

وتنتهي القصة بأن الله نجى هودًا والمؤمنين معه ، نجاهم من عذاب غليظ .

وهكلت عاد ، فلم يستطيعوا أن يدفعوا الشر عن أنفسهم ، ولم تستطع آلهتهم أن ينصروهم .

نصره الله ونجاه ومَن آمن معه ، لأنه قادر عظيم آخذ بناصية كل شيء .

وخذلتهم آلهتهم لأنها عاجزة حقيرة تتأثر بعوامل الدهر ، ولا تؤثر في شيء ، وهذا هو موضع العبرة في كلمات قصار ، فليتدبرها مشركو مكة والملحدون في كل زمان ومكان : ﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود:٦٠) .

في الأمثلة السابقة جميعًا يجرد القرآن الأصنام من كل صفات القوة والتاثير ، ويضعها في مكانها الحقيقي من عالم الجمادات ، فهي لا تنفع عابدًا لها ولا تضر عاصيًا ، ويستهدف القرآن من وراء هذا صرف الناس عن هذه النزعة الضالة ، موجهًا لهم الوجهة السليمة في الاعتقاد القلبي والسلوك العملي .

● **السخرية من الأصنام :**

وفي مواضع أخرى يسخر القرآن الكريم سخرية لاذعة من الأصنام وعابديها ، ونذكر من ذلك مثالين :

● **مثال على لسان إبراهيم :**

أولهما : قول إبراهيم عليه السلام لقومه حينما واجهوه بتحطيمه أصنامهم :

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَـٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنبياء:٥٧-٦٧) .

لقد أفلح إبراهيم عليه السلام في رسم هذه الخطة التي أفحم بها خصومه ، وأراهم عجز آلهتهم عيانًا حيث لم يدفعوا الضر عن أنفسهم ، ثم استدرجهم من هذه الواقعة إلى أن يلقنهم الحقائق التالية :

إن هذه الأصنام فاقدة القدرة على النطق ، كما أنها فاقدة القدرة على أي شيء فهي جماد .

إن المعبود الذي يستحق العبادة مَن ينفع ويضر ، وهؤلاء حيث ثبت عجزهم عن نفع أنفسهم فحرى ألا يُعبدوا لعجزهم عن نفع غيرهم وضره .

إن قومه مسلوبو العقل الرشيد ، إذ لو كانوا عقلاء لصرفهم تفكيرهم عن هذا الضلال المبين .

أما السخرية اللاذعة فإننا نراها في العبارات الآتية :

﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ .

وقد علم وعلموا أنهم لا ينطقون .

﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ .

وفي هذا توبيخ لهم وسخرية بأصنامهم ، وإنكار أن يكونوا عابدين لها ، وهي لا تنفع ولا تضر .

﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

● **ومثال على لسان موسى :**

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ (طه:٩٥-٩٨) .

يا لسخرية القَدَر ، إله ... إله يُحرق ـ هكذا بالتكثير ـ ثم يُنسف ويذرى في اليم .. ما أتفه هذا الإله ، وما أتعسه .

وما أضل وأتعس مَن اتخذه إلهًا .. إن كان إله فليدفع عن نفسه التحريق والنسف .. وكيف له ذلك ؟

ما موقف النفس والعقل معًا من هذا الإله المحرَّق المنسوف نسفًا ، إن النفس لتسخر منه وتحتقره ، وإن العقل ليرفضه ، ويصد عنه .

العقل والنفس معًا ينفضان أيديهما منه ، إنه لخيال ، بل إنه لوهم .

وبعد أن يستقر في العقل والنفس هذا المعنى ، تأتي العقيدة الصحيحة لتتمكن أيما تمكن بعد تجربة أثبتت فشل فكرة التعدد واتخاذ الأصنام آلهة من دون الله .. جاء دور الحق ، ليؤمن به العقل ، وتعظمه النفس : ﴿ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾ .

● **منهج تربوي :**

ثم انظر إلى هذا المنهج التربوي الرشيد ، والاستدراج الحكيم الذي ساقه القرآن على لسان النبي إبراهيم عليه السلام .

قال سبحانه في سورة الأنعام :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام:٧٤-٨٢).

فقد أنكر إبراهيم على أبيه وقومه أن يتخذوا أصنامًا آلهة ، ورماهم بالضلال المبين ثم سلك معهم مسلك مجاراة الخصم فيما يزعم من باطل ليستعرض شُبهه واحدة تلو الأخرى ، فيبطلها ، وهكذا حتى إذا ما بقي له شيء يمكنه التمسك به دفع شُبهه مرة واحدة وأثبت المطلوب الذي يريد إثباته .

● **عرض ونقد :**

ولستُ مع بعض المفسرين والكُتَّاب الذين يُجوِّزون أن يكون إبراهيم قال ذلك في فتوته على سبيل الاعتقاد متدرجًا من صورة إلى أخرى ، حتى اهتدى إلى الحق ، لستُ مع هؤلاء لأسباب ..

أولاً : إن هذا يتنافى مع الرسالة لأن القرآن صريح في أن إبراهيم إنما قال ذلك وهو رسول .

ثانيًا : إنه في أثناء هذه المراحل بعد أن رأى القمر بازغًا ، وقبل أن يرى الشمس قال : ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ فمَن هو ربه إذن ومَن هم القوم الضالون إن لم يكونوا هم الذين اتخذوا الأصنام أربابًا من دون الله ؟

ثالثًا : إن القرآن افتتح هذا الفصل بإنكار إبراهيم عليه السلام على أبيه وقومه أن يتخذوا أصنامًا آلهة ، ووصفهم بالضلال المبين .

رابعًا : إن إبراهيم عليه السلام فرغ من تجاربه هذه إلى إثبات العقيدة الصحيحة في زمن لا يزيد عن يوم وليلة .

- **إيضاح ذلك :**

إنه رأى ـ والله أعلم ـ الكوكب في أول الليل فقال : هذا ربي .. فلما أفل في جزء من الليل نفسه بزغ القمر ، فأقلع عن فكرة الكوكب وأقبل على فكرة القمر ، فلما أشرقت الشمس في الصباح وسطع ضوؤها فلم يعد معه وجود للقمر أقلع عن فكرة القمر ، وأقبل على فكرة الشمس ..

وذلك كله في ليل سابق ويوم لاحق ، وأي تفسير غير هذا يلزم منه امتداد زمن التجارب الثلاث فنحتاج إلى تخريجات لسنا في حاجة إليها مع إمكان هذا الإيضاح الذي أوردناه .

وإذا تقرر ذلك فهل كان انتقال إبراهيم عليه السلام من مرحلة عدم الاهتداء إلى الإله الحقيقي ، إلى مرحلة الاهتداء إليه انتقالاً طبيعيًّا في هذه المدة الوجيزة ؟

قد يُجاب على هذا بأن صفاء الفطرة يمكن معه مثل هذا الانتقال السريع ، ونحن نقول بدورنا : إن صفاء الفطرة هذا كفيل بصيانة إبراهيم عليه السلام من مثل هذا التخبط ، والقرآن نفسه يقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٥١) .

● **هدفنا من النقد :**

والذي نهدف إليه من هذا كله هو أن ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام ليس إلا مجاراة للخصم من حيث الظاهر ، واستدراجًا إلى الإنكار عليهم بصور عملية يشاهدونها ويحسونها حتى يهتدوا إلى الإيمان الحق ، فإذا كان الكوكب وهو في السماء ، والقمر وأثره في الكون ظاهر ، والشمس وهى مصدر الدفء والنور .. إذا كانت هذه الأشياء العلوية الفائقة مرفوضة أن تكون أربابًا ، فما بالك بالتماثيل والأصنام التي كان يعبدها قوم إبراهيم ؟

ذلك ما يمكن استخلاصه من القصة على وجه مقبول ملائم لمقام الرسالة ، وصيانة الرسل من الزيغ في أصل العقيدة المؤهلين لإبلاغها ونشرها .

● **قطب واحد :**

والآن ـ وبعد هذه المثل جميعًا ـ ما هي الطريقة التي سلكها القرآن في قضية التوحيد ؟ إن محور العبرة في هذا المجال يدور حول قطب واحد ، مهما اختلفت النماذج وصياغة التعبير .

ذلك القطب يرتكز على جانبين :

أولهما : إثبات كل صفات الجلال والعظمة لله ، بحيث يؤمن العقل بوجوده ، ويرفض أن يكون له شريك .

وكانت أدلة هذا الجانب مظاهر الكون من الخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، وإنزال الماء وإنبات الزرع المختلف الأحجام والألوان والطعوم ، وإرسال الرياح وتسيير السحاب وكشف الضر وإيصال النفع .

هذه مظاهر نُسِبت إلى الله ، ولا تصح نسبتها إلا إليه ، إذن فهو موجود في الواقع ، وفي العقل ، وفي النفس والوجدان .

وهذا الكون يسير على نظام دقيق لا تخلف فيه ، تصرف منسوب إلى إله عظيم القُدرة ، مطلق الإرادة ، إذن فهو واحد ليس له شريك في الواقع ، وفي العقل ، وفي النفس والوجدان .

ثانيهما : إثبات صفات العجز المطلق ، والضعف المهين ، والشلل الكلي عن كل حركة ، نافعة أو ضارة ، لتلك الأصنام التي يدعونها آلهة ، إذن فليست هي آلهة في الواقع ، وفي العقل ، وفي النفس والوجدان .

وإذا ثبت أنها ليست آلهة ، لأنها مخلوقة لا خالقة ، مقدور عليها لا قادرة ، إذن فهي ليست شريكة لله في الواقع ، وفي العقل ، وفي النفس والوجدان .

● **المشكلة الثانية ـ قضية البعث :**

في المشكلة السابقة ـ مشكلة تعدد الآلهة والتوحيد ـ اعتمد المشركون فيما اعتمدوا على شُبهة هي أقوى ما عندهم وأضعف ما يعتمدون عليه في نفس الوقت ، تلك الشُّبهة هي شُبهة التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم .

لقد رددوا هذه الشُّبهة كثيراً كلما دعاهم الدعاة إلى توحيد الله ، وترك ما هم فيه من ضلال .

وفي هذه المشكلة اعتمدوا كذلك على شُبهة واحدة هي أقوى ما يمكن أن يُقال لدى منكري البعث ، وهي ـ كذلك ـ أضعف شُبهة يمكن أن تقف أمام تقرير هذه الحقيقة في الواقع وفي الاعتقاد .

وكافيك من خصم أقوى ما لديه من دليل أضعف ما يمكن أن يعترض به عليك ، ولقد ناقش القرآن شُبهتهم هذه ودحضها بما ساق من براهين قوية ، وحجج مفحمة .

ولنذكر شواهد ذلك فيه ..

● **رد شُبه الإنكار :**

أولاً ـ قال سبحانه مبيِّنًا مقولة منكري البعث ، مفندًا لها :

﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ

ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨١-٩١) .

بدهي أن عناصر الموضوع الذي اشتمل عليه النص الكريم تتلخص فيما يأتي :

الأول : فكرة إنكار البعث .

الثاني : أدلة هذه الفكرة كما يصورها زاعموها .

الثالث : الرد عليها من وجوه .

العنصر الأول صوَّره القرآن بعد مقدمة قصيرة بقوله : ﴿ بَلْ قَالُوا۟ مِثْلَ مَا قَالَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓا۟ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ .

الثاني : وهو أدلة هذه الفكرة ، جاء الحديث عنها ضمن الحديث عن العنصر الأول ، فاستبعادهم للبعث سببه : استحالة إعادة الأجسام بعد الموت وصيرورتها ترابًا وعظامًا .

- **سببان للإنكار :**

هذا سبب أصيل في دعواهم ، وقد قوَّاه لديهم سبب آخر ، لكنه سبب إضافي ثانوي هو : أن آباءهم الأقدمين قد وُعِدوا مثلهم هذا الوعد ، لكنه لم ينفذ ، فدل ذلك على عدم وقوعه ـ كما يزعمون ـ فهو من أساطير الأولين وحكاياتهم .

هذان هما جانبا القضية .

وجاء دور الرد ، فكيف بدأ القرآن الرد عليهم ؟

رد القرآن الكريم عليهم بمقدمات مسلمة لديهم ، أو لا محيص لهم من التسليم بها لأنها لائحة بيِّنة .

ثم رتب على هذه المقدمات النتائج الملزمة التي لا تحتمل شكًّا ولا إنكارًا ولا مكابرة ولا استبعادًا ، وخاطب عقولهم وطالبهم بالتأمل والذكرى ، وحذرهم خشية الله وعقابه ، وأهاب بهم أن يتركوا الجهالة وألا يخدعوا أنفسهم بباطل القول وغروره .

فالله وحده هو خالق الكون ، وما فيه من عجائب تدل على عظيم قدرته وحرية إرادته : مغيث الملهوف ، وحامي المكروب ، ومؤمِّن الخائف ، ولا يقدر أحد أن يمنع بطشه إذ نزل .

إن كل حركة .. وكل سكون في الكون هو مصدره : خالقه وموجده ، ومكيفه بكيفية خاصة ، وخالق الشيء ابتداء على غير مثال سبق لا يعجزه أن يعيده على ما كان عليه ، أو في أية صورة أراد .

- **صحة البعث حقيقة :**

فالدليل على صحة البعث مستقى من خلق أنفسهم ، وخلق الكون وما فيه من مظاهر مختلفة فليتأملوها .

ولقد كان أول ما لفت إليه القرآن أنظارهم الأرض ومَن فيها ، لأنه أقرب مشهد إليهم إذ عليها يحيون ، وفيها يحرثون ويزرعون ، ثم ترقى معهم إلى السموات السبع خطوة أخرى لأن السموات أظهر ما يُشاهَد بعد الأرض ، وما دام الأمر تأملاً في السموات فليتأملوها كذلك في العرش العظيم ، ومَن ربهما ؟ أليس ربهما الله ؟

وإذا عرف أن العرش مصدر القُدرة والسلطان فقبل أن يخطو بعيدًا عنه خطوة واحدة ليذكروا مَن بيده ملكوت السموات والأرض ، وملكوت كل شيء ، أليس هو الله ؟

ومن رقة الجدل القرآني ولين معرضه فإنه في ختام كل مشهد يذكر عبارة تستل من المعاندين عنادهم .

فبعد المشهد الأول يقول : ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ، وبعد المشهد الثاني يقول : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، وبعد المشهد الثالث يقول : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ، وبعد المشهد الرابع يقول : ﴿ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ .

إن مشاهد البعث بعد هذه النماذج الماثلة أمام النظر ، المتكررة على تطاول الدهر لهي جزء من مشهد لما هو واقع ملموس ، هي عملية إعادة لأشكال ورسوم وُجِدَت قبل ولم تكن لها حقائق تـأتي مطابقة لها فما أسهل العود .

● **استدلال ممتع :**

« فقد عرض القرآن دلائله وبراهينه في أسلوب أدبي رائع ، يستهوى نفس العربي فينفتح فؤاده ـ وهو لا يدري ـ لسماع ما يُعرض عليه مأخوذًا بعذوبته وجماله ، ثم يرى نفسه مسوقًا للتأمل فيما يسمع ، والتدبر فيما يُلقى إليه ، وإن كان مخالفًا لعقيدته ومفندًا لرأيه ومبطلاً لما درج عليه من مذاهب وأهواء».

« ولم يتوجه القرآن بالدليل إلى العقل وحده ، لكنه خاطب جميع القوى المدركة والمؤثرة في النفس الإنسانية .. وتدرج في الدليل من مرحلة إلى أخرى مستخدمًا الإثارة الوجدانية تارة ، وتحريك العاطفة تارة أخرى ، وهز مشاعر الرجاء والخوف ، ووجَّه النظر إلى المُحَس المَشاهَد ، وقاس عليه البعيد الغائب ، وقطع السبيل على المجادل وسد جميع الثغرات أمام الناظر ، حتى لا يجد غضاضة في التسليم ، ولامرارة في القبول ، ولا محيصًا من الإذعان»[1].

● **دعوى مردودة :**

قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾

(١) نفحات من عبير الأدب : محمد سرحان ـ اللغة العربية ص ٣٢ .

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ (يس:٧٨-٨٣) .

هنا مثل مضروب لاستبعاد البعث ، عظام إنسان محروقة مصحونة ذراها منكر البعث أمام الرسول قائلاً : مَنْ يحيي العظام وهي رميم ؟! والاستفهام هنا إنكاري .

هذه دعواه فبماذا ردها القرآن ؟

هذا المنكِر للبعث الضارب للمثل[1] ، نسي حقيقة هامة ، لو تأملها لما ساغ له أن ينكر كما لم يسغ له أن يضرب المثل .

إنه نسي خلقه من أين جاء وإلى أين ذهب ، فلنجاره على نسيان خلقه ، ولنكتف بتلك الإشارة إلى هذا النسيان في عرض دعواه .

إن القرآن الكريم لم يطلب من هذا المنكر وأمثاله صعبًا ، بل طلب منهم أن ينظروا حولهم حتى يتبين لهم أن الذي يحيي العظام وهي رميم هو الذي أنشأها أول مرة ، وهو بخلقها وبخلق كل شيء عليم .

فإن شكُّوا في هذا فلينظروا إلى النار التي يوقدونها ، وفيها متاع لهم ، الذي جعل لهم هذه النار من الشجر الأخضر ـ وبينهما تناف كما ترى ـ هو الذي يحيي العظام وهي رميم .

بل فلينظروا إلى السموات والأرض ، هذه الأجرام العظيمة ، أوَ ليس الذي خلقها قادرًا على أن يحيي الموتى ، بلى إنه لقادر ، إنما أمره إذا أراد سريع التكوين ، وبيده مقاليد السموات والأرض ، ومقاليد كل شيء .

---

(١) في الكشاف أنه أبيِّ بن خلف وجماعة من المشركين هم : أبو جهل والعاص ابن وائل والوليد بن المغيرة ، وقد تطوع لهم أبيِّ بمحاجة الرسول فعل ما فعلت فنزلت الآيات (الكشاف : ٤/٢٣) .

﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ (الأنبياء:١٠٤) ، ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ (الأعراف:٢٩) ، ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (لقمان:٢٨) ، ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ (الشورى:٢٩) .

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ (الطارق:٥-١٠).

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه :٥٥).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ (الحج:٥) .

هذه الأطوار التي يمر بها الإنسان نفسه في مراحل نموه وتكوينه ، واقع ثابت لا يمكن إنكاره ، وهو لابد له من موجد مؤثر غير متأثر حسبما يقتضي العقل ، أليس الذي أوجد هذه المخلوقات في أطوارها المختلفة بقادر على إعادتها ، بلى إنه لقادر ، فما هي الحُجَّة التي يمكن أن يرتكن إليها المنكرون بعد .. ؟

لا شيء .....

● **ومثال آخر :**

﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق:٢-١١).

إن هذه الآيات العظام والمشاهد الضخام ، التي يمرون عليها ليلاً ونهارًا ، إذا قيس بها أمر البعث كان في نفسه أيسر منها فعلاً ، ينكرون وقوعه في وقت لا ينكرون فيه ولا يُقبل منهم لو أنكروا هذه المقدمات ؟

فليفكروا بعقولهم ففيما ذكر للعقل مجال ، وليتأملوا بحواسهم ففيما ذكر للحواس جمال .

• منزع الأدلة في المشكلتين :

لقد استعرضنا ـ في إيجاز ـ علاج القرآن الحكيم لمشكلتي التوحيد والبعث ، ونستطيع أن نقول ـ في اطمئنان ـ إن منزع الأدلة التي ساقها القرآن لمحاجة المخالفين هو الطبيعة بما فيها من ظواهر وسنن ، ونظام واتساق ، والطبيعة كتاب مفتوح كل إنسان قادر على قراءته وفهمه .

وهي متجددة أمام النظر فيها آيات وعِبَر ، ولذلك نستطيع أن نفهم سر اختيار القرآن هذا المصدر لسوق الأدلة ، ولفت الأنظار ، لأن القرآن يميل إلى اليُسر والسهولة وينأى عن التعقيد والصعوبة ، ففي الكون والطبيعة تتجلى مظاهر القدرة الخلاقة العظيمة ، قُدرة الله الكبير المتعال :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ (آل عمران:١٩٠،١٩١) .

وإذا كان منزع الأدلة في المشكلتين واحدًا ، هو الطبيعة الناطقة المتجددة تجدد الحياة نفسها ، فإن طريقة الاستدلال تختلف من مشكلة إلى أخرى .

وقد ذكرنا القانون الذي أقامه القرآن لإثبات وجود الله ، ووحدانيته ، وإبطال فكرة الأصنام والتعدد في الآلهة .

والآن ما هو القانون الذي أقامه القرآن لإثبات وقوع البعث ؟

في سهولة يمكن أن يقال : إن هذه الظواهر المشاهَدة المرئية قد ثبت أن الله فاعلها ، ولـم يكن لها قبل خلقها مثال احتذى في إيجادها ، بل خلقها من العدم .

وهذه حقائق ثابتة بالضرورة .

إذن فإن الذي قدر على البدء ، كان ـ من باب أولى ـ قادرًا على الإعادة .

وبذلك تصبح مسألة البعث من أسهل مظاهر التكوين لأنها إعادة ، هذا بالنسبة لنا وإن كان بالنسبة لله يستوى المبدأ والمعاد في اليُسر والإمكان .

ثم ما هي خصائص الجدل القرآني ؟

- **خصائص الجدل القرآني :**

تتمثل خصائص الجدل القرآني ـ حسبما يصل إليه الباحث في نصوصه ـ في الملاحظات الآتية :

أولاً : انتزاع الأدلة من الأحوال المحسوسة دونما إلغاز أو غموض ـ كما ألف الناس في أقيستهم ومحاوراتهم .

ثانيًا : سهولة تصور تلك الأدلة بحيث لا يمكن إنكارها لوضوحها وسرعة فهمها .

ثالثًا : أن القرآن لا يقف أمام العقل وحده يخاطبه ، بل يوجه إرشاده إلى كل القُوَى المدركة في الإنسان ، عقل ونفس ، عواطف ووجدان .

رابعًا : أن الأسلوب الجدلي في القرآن الكريم يميل دائمًا إلى جانب الإنصاف ويستدرج الفكر بكل روافده إلى الحق مُطوِّقًا الخصم من جميع ثغوره مفندًا كل شُبهة لديه فلا يدعه حتى يستلب منه كل ما يمكن أن يستمسك به في أسلوب حكيم مقنع وتصوير سهل ممتع .

لقد لمس القرآن الوجدان واتبع طريقة التصوير فبلغ الغاية بمادته وطريقته وجمع بين الغرض الديني والغرض الفني من أرفع طريق وأقرب طريق[1] .

● **حقيقة مهمة :**

وبقيت حقيقة هامة لابد من الإشارة إليها ، ذلك فإن القرآن بجدله الحكيم المقنع الممتع لم ينهزم في أي معركة ، بل كُتِبَ له النصر في جميع معاركه الفكرية التي خاضها سواء فيما ذكرناه من قضيتي التوحيد والبعث .. أو فيما لم نذكره من قضايا أخرى ، وما أكثر ما خاض القرآن من قضايا فكرية ومشاكل وجودية مثل قضية التحدي للقرآن الكريم وقضية التحريم والتحليل وقضية خلق السموات والأرض وقضية صحة الرسالة ، وقضية نسبة الصاحبة والولد لله ـ سبحانه ـ هذه كلها قضايا خاضها القرآن فانهزم الخصم وانتصر هو .

أما تمسك الخصم بما يرى ـ في بعض القضايا ـ فليس لقصور في الدليل ، ولا لغموض في الفكرة ، بل كان ذلك مسببًا عن عنادهم وتماديهم في الباطل ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ **وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ** ﴾ (النمل:١٤).

٥- التصوير والتشخيص[2] :

القرآن كتاب كل شيء ، فيه من جميع ألوان المعارف والعلوم والفنون ما ظهر منها وعرفه الناس ، وما لم يظهر في ضمير الغيب .

هو كتاب تاريخ وعلوم وعقيدة ، وتشريع وقصص وآداب ، وجدل وفلسفة وحكمة ووعظ وهداية وإرشاد ، وإصلاح وتهذيب وتوجيه ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ **مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ** ﴾ (الأنعام:٣٨) .

---

(١) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب .

(٢) سبق الحديث عن هذه الطريقة في الفصل الثالث عند دراستنا لألفاظ القرآن وسيأتي لها تفصيل في مجازات القرآن من هذا البحث .

هذه المعارف والفنون والعلوم المختلفة ، والأهداف والمقاصد المتباينة فضَّل القرآن الكريم الحديث عنها بطريقة هي أفضل طرق التعبير وأقومها ، وهي طريقة : التصوير والتشخيص ، سواء أكانت المعاني ذهنية ، أو غير ذهنية فذلك منهجه فيها ، وسمته التعبيرية الغالبة عليها .

وفضل هذه الطريقة على غيرها معروف ، لأن المعاني فيها لا يخاطَب بها العقل وحده بل تشترك معه كل قُوَى الإدراك : السمع والبصر ، الشم واللمس ، والذوق ، والعواطف والشعور والأحاسيس ، فحين يخاطب القرآن الناس بهذه الطريقة يصبح الإنسان بكل شعوره وحواسه آلة إدراك وتذوق وتأمل .

ونذكر فيما يلي نماذج هذه الطريقة مع بيان أثرها في النفس والشعور كلما أمكن ذلك .

١- نماذج بَشرية :

للإنسان جانب كبير في القرآن الكريم ، يرقب سلوكه ويضبط أحواله ، والناس بحسب سلوكهم وعقائدهم في القرآن الكريم أنواع وصنوف ، وقد تحدَّث القرآن عنهم حديثًا رائعًا صوَّر لنا فيه تلك الأنواع تصويراً فاق ما يخطه الرسام بخطوطه وألوانه .. ومساحاته وزواياه .

فأحبار اليهود ـ مثلاً ـ أو الكفار أو المنافقون ، دأبوا على الغدر والخيانة ولم يرعوا لله عهدًا ولا ذمة .

رصد القرآن الكريم هذا السلوك الشائن ، وسجله في آية من سورة البقرة حيث يقول سبحانه : ﴿ **ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ** ﴾ (البقرة:٢٧) .

● جرائم ثلاث :

في الآية ثلاث جرائم ارتكبها الأحبار أو المنافقون أو الكفار كما جاء في كتب التفسير ... وتلك الجرائم الثلاث هي :

١- نقض عهد الله .

٢- قطع ما أمر الله به أن يوصل .

٣- الإفساد في الأرض .

ونقض العهده هو عدم الوفاء به . . . لكن القرآن عبَّر عنه بالنقض فقال : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٧) ، والميثاق بمعنى التوثقة أي الإحكام والتوثيق ، وهذا التعبير مجازي لأن النقض حقيقة هو : نقض البناء والحبل[١] وهو «انتثار العقد من البناء والحبل والعقد ، وهو ضد الإبرام»[٢] وهو فك التركيب والفسخ فيما هو محسوس ، والمآل واحد في جميع التفسيرات ، وهذا يقضي بكون النقض واقعًا على العهد مجازًا شُبِّهَ فيه المعنوي بالحسي تصويرًا للمعنى وتشخيصًا ليكون أوضح وأمثل أمام النظر ، قال الزمخشري في توجيه المجاز في الآية المذكورة :

«النقض : الفسخ وفك التركيب ، فإن قلتَ : من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد ؟ قلتُ : من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ، ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة : يا رسول الله ، إن بيننا وبين القوم حبالاً ونحن قاطعوها ، فنخشى إن الله عَزَّ وجَلَّ أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك ، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذِكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه ، فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه ، ونحوه قولك : شجاع يفترس أقرانه ، وعالِم يغترف منه الناس ، وإذا تزوجتَ امرأة فاستوثرها ، لم تقل هذا إلا وقد نبهتَ على الشجاع والعالِم بأنهما أسد وبحر ، وعلى المرأة بأنها فراش»[٣] .

والاستعارة التي يقصدها الزمخشري هنا هي الاستعارة المكنية لأن تحليله لمجاز الآية ينطبق عليها .

---

(١) مختار الصحاح ص ٦٧٦ .

(٢) مفردات القرآن للراغب الأصفهانى ص ٥٠٤ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٩٠ .

وعلى هذا فإن العهد قد سمى بالحبل ، فالحبل مشبَّه به ، حُذِف ورُمِزَ له بشيء من لوازمه الذي هو النقض ، والقرينة هي إثبات النقض للعهد ، أما الجامع بين الحبل والعهد ، فهو الإحكام والاستيثاق .

وقد أظهر المجاز المعنى في صورة المحسوس ليكون أبين وأظهر ، ولِيُنَفِّر من هذا السلوك المشين لأن فك إحكام الحبل هدم لعمل بذل فيه صاحبه جهدًا ، ولأن الحبل بعد فكه يصبح عديم الجدوى .

● **«نقض» .. في القرآن :**

وقد جاءت هذه الكلمة «نقض» بمعنى المجاز أيضًا في مواضع أخرى من القرآن الكريم ، مرادًا بها فيها ما أريد بها هنا ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ (النحل:٩٢).

وجاء قبل هذه الآية قوله تعالى : **﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾** (النحل:٩١).

ومنها قوله تعالى : **﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾** (الأنفال:٥٦) .

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾ (الرعد:٢٠).

وقوله : **﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾** (البقرة:٢٧).

وقوله : **﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾**

(النساء:١٥٥) .

وقوله : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(المائدة:١٣) .

● **نتيجة :**

هذا التتبع لاستعمالات كلمة «نقض» في صورها المختلفة في القرآن الكريم ، يضع أمامنا حقيقة هامة ، هي أن القرآن قد عبَّر بها في كل موضع من مواضعها المذكورة سواء مثبتة أو منفية ، عبَّر بها عن إبطال العهد وعدم الوفاء به بعد الالتزام والتحمل .. وإبطال العهد أمر معنوي .. أما النقض فهو فسخ التركيب في المركبات الحسية كالحبل والغزل ونحوهما[1] فهو أمر حسي .

واستعماله في المعنوي مظهر من مظاهر إبراز القرآن للمعاني المعقولة في صورة المحسوسة اعتناءً بالمعنى ، وإظهارًا له في أجلى صور الوضوح .

● **القطع والوصل :**

وكذلك جاء التعبير في بيان الجريمة الثانية التي ارتكبها المخالفون وهي : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ (البقرة:٢٧) .

فالقطع والوصل مستعملان في غير ما خصهما به الوضع ، لأن القطع مستعمل حقيقة في الأجسام الصلبة المتماسكة ، فهو في أمر حسي .. وكذلك الوصل مستعمل في المحسوسات والمراد منها في الآية ـ كما يرى العلامة أبو السعود :« يحتمل كل قطيعة لا يرضى الله سبحانه وتعالى بها كقطع الرحم ، ومعاداة المؤمنين ، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام ، والكتب في عدم التصديق ، وترك الجماعات المفروضة وسائر ما فيه رفض خير ، أو تعاطي

(١) تفسير أبي السعود : ٩٢/١ .

شر ، فإنه يقطع ما بين الله تعالى وبين العبد من الوصلة التي هي مقصودة بالذات من كل وصل وفصل»[1].

وهذه كما ترى أمور معنوية قد عُبِّرَ عنها بما يُعبِّر به عن الحسية جريًا على سُنَّة القرآن في التصوير والتشخيص .

وقد وردت المادة «ق ط ع» على سبيل المجاز وعلى سبيل الحقيقة ، فمن المجاز ما ورد في هذه الآية : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ ، ونوع المجاز فيه استعاري حيث شبَّه تركهم ما أمر الله به أن يؤتى بقطع ما هو موصول متماسك ، والقرينة حالية إذ سياق الحديث في التكاليف الشرعية .

والجامع بين المستعار منه والمستعار له زوال الأثر في كل ، فالموصول إذا قطع ذهبت قوته والانتفاع به ، وما أمر الله به أن يؤتى إذا ترك زال أثره من رضوان الله وإثابته .

● قطع ووصل في القرآن :

وقد طابق القرآن بين القطع والوصل ، كما طابق بين : «ينقضون» و«ميثاقه» إذا أخذنا برأي مَن يقول : إن الميثاق المراد به التوثقة كالميعاد المراد به الوعد[2] ـ والاستعارة تصريحية تبعية ..

ومن استعمالات القرآن المجازية لهذه الكلمة النصوص الآتية :

﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف:٧٢).

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ﴾ (العنكبوت:٢٩).

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴾(آل عمران:١٢٧).

﴿ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ (الأعراف:١٦٠) .

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾ (محمد:٢٢).

﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ (البقرة:١٦٦) .

---

(١) تفسير أبي السعود : ٩٣/١ .

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري : جـ ١ ، وتفسير أبي السعود : جـ ١ .

﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴾ (الأنبياء:٩٣) .

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمۡرًا حَتَّىٰ تَشۡهَدُونِ ﴾ (النمل:٣٢) .

﴿ وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ﴾

(الحجر:٦٦) .

وإذا كان التعبير في هذه النصوص مجازيًّا استعاريًّا لاستعمال اللفظ : « قطع » في الأمور المعقولة ، للمبالغة في بيان المعنى وتوكيده وتقريره ، كما هو الملحوظ في كل مجاز .

أما استعمالاتها الحقيقية فيه فكثيرة منها المواضع الآتية :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾

(المائدة:٣٨) .

﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ ﴾

(طه:٧١).

﴿ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ أَكۡبَرۡنَهُۥ وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ ﴾ (يوسف:٣١) .

وكذلك استعمل القرآن مادة : « و ص ل » بمعنى الوصل استعمالاً مجازيًّا في المواضع الآتية مرادًا بها فيها ما أريد بها هنا :

وهي : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾

(الرعد:٢١) .

﴿ ۞ وَلَقَدۡ وَصَّلۡنَا لَهُمُ ٱلۡقَوۡلَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (القصص:٥١).

ولم يستعمل القرآن هذه المادة « و ص ل » إذا كان مرادًا بها « الوصل » استعمالاً حقيقيًّا بل مجازيًّا ، وإنما استعمل ذلك في مواضع مقصود منها « الوصول » دون « الوصل » مثل قوله تعالى : ﴿ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا ﴾ (القصص:٣٥).

والملاحظ أن استعمال المادة الأولى «ق ط ع» في القرآن أكثر من استعمال مادة «و ص ل» وأن جانب المجاز في المادتين هو الغالب .

وهو في «و ص ل» بمعنى «الوصل» شامل لجميع مواضع ذكرها .

● **ضعف العقيدة :**

ونموذج آخر : قال تعالى في سورة الحج : ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ** ﴾ (الحج:١١) .

﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ** ﴾ ـ أي وبعض الناس ، وهذا الفريق يعبد الله ما دامت فضائله كثيرة عنده يرفل فيها صباح مساء ، صحة ومال وولد ، فإذا تبدلت هذه النِّعَم وابتلاه الله بشيء من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس والثمرات تبدل إيمانه كفرًا ، وطاعته معصية ، وأخذ ينعي حظه في الحياة .

قال العلامة أبو السعود : «روى أنها نزلت في أعاريب قدموا المدينة ، وكان أحدهم إذا صح بدنه ، وأنتجت فرسه مُهرًا سويًّا ، وولدت امرأته ولدًا سويًّا ، وكثر ماله وماشيته قال : ما أصبتُ منذ دخلتُ في ديني هذا إلا خيرًا ، واطمأن ، وإن كان الأمر بخلافه قال : ما أصبتُ إلا شرًّا ، وانقلب»[(١)].

والمعنى أن هذا الفريق يعبد الله على ظاهر من الإيمان لم يتمكن الإيمان من قلبه ... وفي التعبير بـ «الحرف» دقة بالغة في تصوير الحالة النفسية لمن كان شأنه هكذا ، والحرف لغة : الطرف ، وهو حافة الشيء ، والواقف عليه لا يقر له قرار : «إن الخيال ليكاد يجسم هذا «الحرف» الذي يعبد الله عليه هذا البعض من الناس ، وإنه ليكاد يتخيل الاضطراب الحسي في وقفتهم وهم يتأرجحون بين الثبات والانقلاب ، وإن هذه الصورة لترسم حالة التزعزع بأوضح مما يؤديه وصف بالتزعزع ، لأنها تنطبع في الحس وتتصل منه بالنفس»[(٢)] .

---

(١) تفسير أبي السعود : ٩/٤ ، ١٠ .

(٢) التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ص ٤٢ .

● **صورة أدبية موحية :**

هذا موطن جمال وتشخيص في هذه الآية الكريمة ... وهناك صورة أدبية موحية بينها وبين هذه الصورة «حرف» اتساق وتلاؤم ، وهي : ﴿ **ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ** ﴾ .

في الصورة الأولى إيماء إلى حقيقة الحالة النفسية التي يكون عليها هذا الفريق ، ثم ماذا بعد تصوير الحالة النفسية ؟

إن المشهد الذي يصوِّره لنا القرآن في الجانب المقابل ، حركة عنيفة تؤدي إلى الهلاك السريع والتحطم البالغ ... ﴿ **ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ** ﴾ والانقلاب على الوجه ذهاب بالصورة إلى قمة التأثير النفسي تنفيراً من هذه الحالة المشينة .

وإنَّا لنلمح التناسق العجيب بين هذين المشهدين «الحرف» و«الانقلاب» فإن مَن يقف على طرف سرعان ما يهوى ساقطًا لا يلوي على شيء ، وتلك نتيجة لازمة يدركها الخيال وإن لم يصرح بها في التعبير[1] .

هذه الصور الدائبة الحركة ، والشخوص البارزة بديل من معنى ذهني مجرَّد ، كان يمكن أن يؤدي بهذه العبارات : من الناس فريق يعبد الله على إيمان ضعيف فإن كرَّمه الله بالنِّعَم هَدى وقَرَّ ، وإن ابتلاه بالمصائب ثار وفر ، وهلك مع الهالكين ، وبين الطريقتين بون شاسع وفرق جسيم .

● **إثارة الخيال :**

لقد اشترك في إدراك هذه الصورة حاسة البصر حيث يتخيل لها ذلك الرجل الجالس أو الوقف على الطرف المتأرجح بين الثبات والتزعزع ، وإن البصر يرقب ذلك الشبح وهو يهوى إلى الأرض في حركة سريعة حين زلَّت به القدم ... وحاسة السمع إنها لتكاد تتخيل صوت ارتطامه بالأرض الصلبة ، يخرق صماخ الأذنين فيتمزق الجسم شر ممزق ، ويتهشم العظم وتتناثر أشلاؤه

---

(١) سحر البيان في مجازات القرآن : بحث لنا مخطوط قدمته لكلية اللغة العربية للحصول على درجة الماجستير في البلاغة عام ١٩٦٨ .

هنا وهناك .. وعواطف الحيرة والقلق ، ثم الشفقة والرثاء ، ثم الذهن حين يقارن ويتأمل ويحكم .

ووراء ذلك كله يكمن سر التعبير كما جاء في الآية الكريمة ..

● **صورتان متماثلتان :**

وهناك صورتان مماثلتان لهذه الصورة ، أولاهما قوله تعالى :

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(آل عمران:١٠٣) .

هذه الصورة برزت فيها المعاني شخوصًا مرئية ، في عالَم محسوس مجسَّم ، ونماذج فنية معروضة للنظَّارة ، لو استطاع رسام أن يبرزها بخطوطه وألوانه لكانت براعة تُحسب له في عالَم التصوير ، والمصوِّر يملك الريشة واللوحة والألوان ، ولكن هنا ألفاظ فحسب صوَّر بها القرآن هذه المعاني حية نابضة بالحركة ، فملأت الشعور والوجدان وأغنت عن الريشة واللوحة والألوان .

● **مقومات الجمال في النص :**

ولننظر إلى جمال التعبير في مواطن جماله : ﴿ **وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا** ﴾ .. والاعتصام هو ذلك التماسك القوي بشيء مجسَّم محسوس « الحبل » مثلاً ... وحبل الله دينه ، سمى حبلاً على سبيل الاستعارة ، والاعتصام ترشيح للمجاز .

يقول الزمخشري : « قولهم » : « اعتصمت بحبله » : يجوز أن يكون تمثيلاً ـ أي استعارة تمثيلية ـ لاستظهاره به ووثوقه بحمايته ، بامتساك المتدلي من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه ، وأن يكون « الحبل » استعارة لعهده والاعتصام لوثوقه بالعهد ، أو ترشيحًا لاستعارة الحبل بما يناسبه ، والمعنى : واجتمعوا على استعانتكم بالله ووثوقكم به ولا تتفرقوا عنه ، أو اجتمعوا على

التمسك بعهده إلى عباده ، وهو الإيمان والطاعة ، أو بكتابه ، لقوله عليه السلام : « القرآن حبل الله المتين لا تنقضي عجائبه »[1] .

● **مجازان تمثيليان :**

فالمجاز في الآية يحتمل التركيب ـ أي استعارة تمثيلية ـ والإفراد على أن يكون الاعتصام كما قال : ترشيحًا للمجاز ، والمجاز المرشح أبلغ من المجرد ، ولكل مقام .

وفي الآية مجاز تمثيلي آخر ، وهو قوله تعالى : ﴿ **وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ** ﴾ وهو قريب من : ﴿ **يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ** ﴾ في كونه مجازًا تمثيليًّا ، ونموذجًا بشريًّا ، وكون مكمن السر الجمالي فيهما « الحرف » و« الشفا » إذ هما متحدان معنًى مختلفان لفظًا .

شبَّه حالهم وهم على الكفر والمعاصي بحال مَن يقارب السقوط في حفرة من النار ، وشبَّه هداية الله لهم إلى الإيمان والطاعات بإنقاذ مَن كاد يهوى في النار ، وإبعاده عنها وتحقق السلامة له .

● **تحليل المجاز في ﴿ شَفَا حُفۡرَةٖ ﴾ :**

قال صاحب الكشاف : « وشفا الحفرة وشفتها : حرفها بالتذكير والتأنيث ... فمثلت حياتهم التي يُتوقع بعدها الوقوع في النار بالقعود على حرفها مشفين على الوقوع فيها »[2] .

فانظر كيف عمد القرآن إلى تجسيم المعنى لتأكيده وتقريره ، وللعناية بإيضاحه حتى يشير في أنفسهم مدى الهلاك الذي كانوا مشرفين عليه ، فتبين لهم نعمة الله في أجلى مظاهرها ، أوَ ليس الذي ينجيك من الهلاك المحقق واهبًا لك حياة جديدة .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ١/٣٠٢ ، ٣٠٣ .
(٢) المرجع السابق : ١/٣٠٤ .

إن التردي في حفرة ـ مجرد حفرة ـ فيه تعرض لخطر جسيم ، فما بالك إذا كانت هذه الحفرة مستعرة بالنار ؟

ليتأمل الخيال وليصوِّر تلك الحفرة عمقًا واتساعًا كيف يشاء ، فتلك فراغات متروكة له يدركها كيفما يريد .

وصورة ثالثة .....

قال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (التوبة:١٠٩).

هاتان صورتان شاخصتان : بُنيان أسس على تقوى من الله ورضوان ، أساسه التقوى والرضوان ، فهو قوي متين .

وبُنيان أسس على قواعد ضعيفة على طرف جرف هار .. فهو في غاية الضعف لا يلبث أن ينهار .

قال الزمخشري : «أسس بنيانه على أضعف قاعدة وأرخاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذي مثله ﴿ جُرُفٍ هَارٍ ﴾ في قلة الثبات والاستمساك ، وضع «شفا الجُرف» في مقابلة التقوى ، لأنه جعل مجازًا عما ينافي التقوى ، فإن قلتَ : ما معنى : ﴿ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ قلتُ : لما جعل الجُرف الهائر مجازًا عن الباطل قيل : فانهار به في نار جهنم ، على معنى : فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز ، فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجُرف ، وليصوِّر أن المبطل كأنه أسس بنيانه على شفا جُرف هار من أودية جهنم فهوى به ذلك الجُرف فهو في مقرها ، والشفا : الحرف والشفير ، وجرف الوادي : جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيًا ، والهار : الهائر وهو المتصدع الذي أشرف على التهدم والسقوط»[1].

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/٢٤٤ .

فالمجاز هنا تمثيلي مركَّب ، ولتحقيق تصوير المعنى بصورة المحسوس كانت أجزاء الصورة كذلك مجازية .

فالبنيان هو الدين الخالص ، وشفا الجُرف الهار هو الباطل والنفاق ، وجاء من ذلك كله ذلك المعنى الآسر .

قال الزمخشري معلقًا على هذا البيان الرفيع : «وأنت لا ترى كلامًا أبلغ من هذا الكلام ..» [1].

هذه الصور الثلاث آثر القرآن أن يخرجها هذا المخرج الماثل الشاخص .

● **موازنة بين الصور الثلاث :**

ولنوازن بين هذه الصور الثلاث ، التي كان «الحرف» و«الشفا» يمثلان فيها أجمل لقطة من لقطات الخيال ، ولنقدم لهذه الموازنة بتمهيد :

أولاً : إن أبطال أو شخوص هذه الصور مختلفون حالاً مع التقارب في الوصف العام ، فالذي يعبد الله على حرف ـ الذي هو بطل الصورة الأولى ـ عنده حظ من إيمان وإن ضؤل . فهو ـ إذن ـ على شُعبة من هدى ، وبسبب نجاة .

ثانيًا : أما أبطال الصورة الثانية : ﴿ **وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ** . . . ﴾ فإن حالهم الذي دل عليه لفظ : «كنتم» كانت متناهية في الخطورة حين كانوا متلبسين بتلك الحال ، واستجابتهم إلى داعي الهدى ﴿ **فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا** ﴾ دليل على حسن استعدادهم لتلقي التربية الصالحة إذا ما تهيأت لهم ظروفها ، وحمل مشعلها هاد صالح على قدر عظيم من الخُلُق والفضيلة .

ثالثًا : وأما بطل الصورة الثالثة : ﴿ **أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ** ﴾ فذو نفس خبيثة ، أصرت على رفض الهدى ، ولجت في عتوها ونفورها ، فليس لها من ماضيها أوحاضرها ما يشفع لها ويدفع عنها سوء المصير .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٢/٢٤٤ .

● **أثر هذه الفروق :**

إذا وضعنا أمامنا هذه الفروق الواضحة بين أبطال الصور الثلاث ، ثم عمدنا نحلل التعبير إزاء كل صورة منها ، رأينا الدقة والسحر يتمثلان أروع تمثيل في الصور الثلاث .

فـ «الحروف» في الصورة الأولى : ﴿ **مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ** ﴾ و«الشفا» في الصورة الثانية : ﴿ **وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ** ﴾ نلحظ بينهما هذا الفرق : أن «الحرف» متروك على حالته ، لم يستتبع بوصف يفيد أكثر من أنه حرف ، حرف وكفى ، أما «الشفا» فقد وُصِفَت بأنها حفرة من النار ، هناك حرف مجرد ، مطلق حرف ، وهنا شفا ممتدة على محيط حفرة تشتعل فيها النار .

لماذا كان التعبير هكذا .... ؟

ولعل السر العجيب في ذلك أن مَن يعبد الله على حرف هو على شُعبة من إيمان في حال عبادته ، فهو إذن على شيء من هدى ، ولما كان حظه من الإيمان لا يؤهله لاحتمال الشدائد والصبر على المكروه ـ وقَلَّ أن يسلم منهما إنسان ـ ناسبت حاله تلك حال مَن يقف على طرف شيء يخشى سقوطه منه وترديه ، ولكن كيف ؟ .. يسقط وكفى .

أما الأوس والخزرج فقد كانوا قبل إسلامهم في ضلال وحروب أذهبت من نفوسهم المروءة وطبعتهم بطابع وحشي ، فناسب من هذه الوجهة أن تشبه حالهم بحال مَن يقف على طرف حفرة تتأجج فيها النار وتستعر ، فمَن تردى منهم هلك واحترق .. ولكن الله سلَّم .

هناك مجرد وقوف على حرف ، وهنا وقوف على طرف حفرة تضطرم بالنار .

الصورة الثانية أكثر رهبة من الأولى ، وأسوأ مصيرًا ـ لأن المخالفة المستوجبة للعقاب في الأولى أهون شأنًا منها في الثانية .

وتأتي الصورة الثالثة .. وقد علمنا موقف بطلها السادر في الضلال ، المعرض عن الهدى المتصف بالكفر والنفاق ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهو أشد خطرًا من سابقيه ، وأفظع ذنبًا ، فجاء التعبير القرآني أشد ما يكون اتساقًا مع ما ثبت له من صفات الكفر والنفاق : ﴿ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنۢبَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ .

فـ «الشفا» ـ هنا ـ غير الشفا وغير الحرف هناك : الشفا شفا جرف ، والجرف ما يجرفه السيل ، إذن فهو شفا رخو هش تغوص فيه الأقدام ، بل الركب والأجسام ... هذه واحدة .

وهو ﴿ هَارٍ ﴾ .. هكذا بالنص ، متفتت لا تثبت عليه خطًى ، ولا يمكن عليه سير ، ضعف فوق ضعف فأنَّى يستقيم له بنيان ؟ ... وهذه ثانية .

﴿ فَٱنۢبَارَ بِهِۦ ﴾ انهار به فعلاً ، وليس مشرفًا على الانهيار . وهنا تكمل نهاية المأساة من حيث نتائجها الطبيعية ، تكمل بالتردي والسقوط الذي كان متوقعًا ، لأن المقدمات صادقة ، موصلة ـ لا محالة ـ إلى هذه النهاية ... وهذه ثالثة .

﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ لم يكن السقوط على الأرض وفي قاع الحفرة فحسب ، لماذا ؟ لأن قاع الحفرة أو سطح الأرض قد يكون ـ كذلك ـ رخوًا هشًّا .

فقد يتوهم أن الساقط عليه قد ينجو وإن تعرض لطفيف الإصابات ، فكان هذا الاحتراس الحكيم الدافع لكل وهم : ﴿ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وهي ـ أي النار ـ كفيلة بهلاكه ولو لم يسقط فيها ، بل ولو دخلها في زينة عروس ... وهذه رابعة .

ثم «النار» ليست هي مطلق نار ، فقد تكون ضعيفة لا تصيبه إلا بالحروق التي ـ يمكن النجاة منها ، لذلك ، ودفعًا لهذا الاحتمال ـ كذلك ـ كانت النار المنهار فيها هي نار جهنم وهي معلوم شأنها :

﴿ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾ (المدثر:٢٨،٢٩) .

﴿ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴾ (المعارج:١٦) .

﴿ وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ (البقرة:٢٤) .. وهذه خامسة .

● **ملاحظة أخرى في الموازنة :**

وصفوة القول : لقد ناسب التعبير القرآني حال كل من الصور أدق مناسبة قدر لها تقديراً دون إيجاز مخل ، ولا إطناب ممل[1] .

بقيت ملاحظة أخيرة ..

فقد جاء في الصورة الأولى قوله تعالى : ﴿ **ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ** ﴾ (الحج:١١).

وجاء في سورة آل عمران : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞۖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ (آل عمران:١٤٤).

الانقلاب في الموضعين مجاز تصويري على طريقة الاستعارة التمثيلية ، شبهت فيه أحوال معقولة بصور محسوسة ، ومع ذلك نلحظ بينهما فرقين هامين :

أولهما : الانقلاب في آية الحج على الوجه ، أما في آية آل عمران فعلى العقبين ، الأول انكفاء على الوجه الذي هو أشرف ما في الإنسان ، والثاني سقوط إلى الخلف .

ثانيهما : جاء بعد الانقلاب في آية الحج قوله تعالى : ﴿ **خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ** ﴾ .

وهذه الخاتمة تجعلنا في يأس من إصلاح حال مَن كان الحديث في شأنه ، كما أننا نتبين مدى خسرانه وكونه ظاهراً لفداحته .

وجاء بعد الانقلاب في آية آل عمران قوله تعالى : ﴿ **وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ** ﴾ .

وهذه الخاتمة تدلنا على شيئين :

---

(١) سحر البيان في مجازات القرآن ـ إعداد مقدم البحث (مخطوط) ص ٣٧-٤١ .

أن الانقلاب لا يضر إلا صاحبه فلا يلحق بالله ـ سبحانه ـ منه شيء ، وأن الله مع هذا كفيل بجزاء الشاكرين .

الخاتمة ـ كما ترى ـ في الموضعين مختلفة من حيث الدلالة : الأولى ميئسة ، والثانية فاتحة لأبواب الرجاء .

● سر الاختلاف :

والسر ـ والله أعلم ـ أن آية آل عمران وردت في مقام عتاب من الله لعباده الذين تأثروا بإشاعة قتل النبي ﷺ أو موته يوم أحُد ، وفي العتاب تأنيب وتأميل ، تأنيب على ما بدا في الماضي ، وتأميل فيما يجب التحلي به في المستقبل ، لذلك كانت الخاتمة في آل عمران رقيقة باعثة على الرجاء والإنابة ،

أما آية الحج فإن الذي يرتد عن دينه إذا ما ابتلاه ربه ويستبدل الكفر بالإيمان والإساءة بالإحسان والمعصية بالطاعة ، قد أحل بنفسه عذاب ربه وباع دينه بدنياه فخسرهما معًا ، فليس معه بقية من رشاد يُرجَى بها هدايته ، ومصيره إلى النار لا محالة .

لذلك كانت الخاتمة معه قاسية أليمة ، كخاتمة حياته ، وعاقبة أمره .

٢- جمادات .. حية :

نجد في القرآن الكريم الجماد يتكلم ، والمعنويات تُوصف بما يوصف به الأحياء العاقلين ، كما أُسند إلى هذه الأنواع أحداث لا يأتي بها غير مَن كانت له حياة حقيقية وعقل وإرادة وتدبير ، ترى ذلك فتسحر ، ولا تستطيع أن تنكر منه شيئًا أو تحس بمخالفة في التعبير للسنن الذي ينبغي أن يكون عليه .

والحديث في ذلك طويل ومتعدد الجوانب .. ولكننا سنضرب مثلاً لتأكيد القاعدة ولبيان أن طريقة التصوير والبعث هي طريقة القرآن المفضلة ، ومنهجه المتبع في بيان المقاصد المختلفة .

وأمثلة ذلك كثيرة منها : ﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ﴾ (الأحزاب:٧٢) .

فأنت ترى السموات والأرض والجبال ـ هنا ـ جماعة من الإناث العاقلات ، فهمن معنى العرض ، وخطر الأمانة فطلبن من الله أن يعفيهن من حملها وأشفقن منها ، إنه لتمثيل رائع أن ترى الجمادات تخاطَب فتعقل وتفكر فتتكلم ، وقد جرى المفسرون على تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ أي : أَبَيْنَ الخيانة فيها وأشفقن من الخيانة .. ويفسرون «الأمانة» بالطاعة أو التكاليف الشرعية[1] .

ولماذا لا نجري الإباء على حقيقته ـ كما سبق ـ ويكون المعنى : طلبن من الله إعفاءهن من حملها ، وحملها الإنسان ، على أن يراد بالأمانة ما يؤمَن عليه الإنسان من مال وغيره ، لا مطلق طاعة ولا عموم التكاليف .

وقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت: ١١).

تكاد كتب التفسير تجمع على أن المراد من أمر السماء والأرض في هذه الآية أنه أمر تكوين ، أي قال لهما : كونا وتشكلا على الهيئة التي نشاهدهما عليها [2].

وفي تحليل معنى الأمر يقول الزمخشري : «إنه أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أمرهما ، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع ، وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل ، ويجوز أن يكون تخييلاً ويُبنى الأمر فيه على أن الله تعالى كلَّم السماء والأرض وقال لهما : ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما ، فقالتا : أتينا على الطوع لا على الكُره ، والغرض تصوير أثر قُدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب» [3] .

---

(١) تفسير النسفي : ٣١٨،٣١٧/٤ ، كشاف الزمخشري : جـ٣، وتفسير أبي السعود : جـ٤.

(٢) تفسير النسفي : ٨٥/٤ ، وتفسير أبو السعود جـ ٤ .

(٣) تفسير الكشاف للزمخشري : ١٤٨/٤ .

وأيًّا كان نوع المجاز تمثيلاً أم غيره فإن شاهدنا في الآية ظاهر ، حيث أسند إلى السماء والأرض ، وهما جمادان ، أحداثًا إنما هي من اختصاص العقلاء .

وقال سبحانه : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ (الدخان:٢٥-٢٩) .

الآيات تتحدث عن قوم فرعون لما جاء الهلاك فهلكوا ، تاركين وراءهم ما كانوا فيه من نعمة وفضل .

أراد الله أن يبيِّن لنا حقارتهم ، وأنهم غير مأسوف عليهم حين هلكوا لعصيانهم وفسادهم ، فقال : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ ﴾ .

ففي نفي بكاء السماء والأرض عليهم تهكم بهم ، لأن العرب كانوا إذا مات لهم عظيم قالوا في تعظيم مهلكة : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس[1] ، وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه ، والقرآن بلغتهم نزل ، فجاء نافيًا ذلك البكاء المخصوص عنهم ليدل أنهم ليسوا كمن يعظم فقده .

ونقل الزمخشري عن الحسن : « فما بكى عليهم الملائكة والمؤمنون ، بل كانوا بهلاكهم مسرورين » .

وفسر هذا ـ أي الزمخشري ـ بقوله : « يعني : فما بكى عليهم أهل الأرض »[2] .

وعلى ما ذكره فإن التعبير من قبل المجاز العقلي الذي أسند فيه البكاء منفيًّا إلى ما ليس له ، والعلاقة المحلية ، أما القرينة فاستحالة أن يكون من السماء والأرض بكاء .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٣١٨/٤ .

(٢) المرجع السابق : ٢١٩/٤ .

وفي الآية شاهد ثان في قوله تعالى : ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ حيث أسند الوصف : ﴿ كَرِيمٍ ﴾ إلى غير ما هو له حقيقة ، وهو ﴿ وَمَقَامٍ ﴾ وذلك كثير فيه ، وسيأتي له بعد بعض التفصيل .

● **كواكب مضيئة :**

وقال سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ (يوسف:٤).

الكواكب والشمس والقمر أجرام سماوية فلا يأتي منها ما يأتي من العقلاء . وقد أجراها القرآن في هذه الآية مجرى العقلاء في موضعين :

أولهما : في ﴿ رَأَيْتُهُمْ ﴾ حيث أعاد عليها الضمير الذي يعاد به على العقلاء ، وكان حق التعبير أن يقال : رأيتها .

ثانيهما : في قوله : ﴿ سَٰجِدِينَ ﴾ حيث أجرى عليهم الوصف الذي من حقه أن يجرى على العقلاء ـ كذلك ـ وكان حق التعبير أن يقال : ساجدة لا «ساجدين» ولتوجيه ذلك طريقان :

أولهما : ذكره المفسرون وهو : «لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء ـ وهو السجود ـ أجرى عليها حكمهم ، كأنها عاقلة ، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلابس الشيء من بعض الوجوه فيعطي حكمًا من أحكامه إظهارًا لأثر الملابسة والمقاربة»[1] .

وهذا توجيه حسن ومقبول ..

ثانيهما : ولم أره لأحد ، وهو أن هذه الكواكب والشمس والقمر لما كانت رموزًا وكنايات عن عاقلين ، حيث صرَّح المفسِّرون بأن المراد بالكواكب : أخوته ، والشمس والقمر : أبواه ـ لما كانت كذلك ـ عوملت معاملتهم فأجرى عليها ما جرى عليهم .

والفرق بين التوجيهين: أن الأول عام يمكن الانتفاع به في غير هذا الموضع، والثاني خاص به دون سواه .

---

(١) تفسير الكشاف للزمخشري : ٣٤٦/٢ .

وقال سبحانه : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ (يس:٤٠) .

عامل الشمس والقمر ، والليل والنهار معاملة جمع المذكر العاقل ، فأجرى عليها ضميره ، لأن الدقة والنظام اللذان يُشاهدان في سير هذه الكواكب والظواهر الكونية خليق أن يأتي من حكماء العاقلين ، لا من أجرام وظواهر ، وهذا سوغ أن تكون مثلها فعوملت معاملتها .

والخلاصة أن ما يجرى مجرى العقلاء في القرآن الكريم ، إنما هو للمبالغة في المعنى لتأكيده وتقريره ، وأن كل موضع وردت فيه هذه السمة ، اشتمل المقام فيه ما يسوغ هذا الصنيع في حكم البلاغة ، ليكون المعنى أوقع في النفس ، وأيسر في الفهم ، وأمثل للنظر ، وليس في هذا الاستعمال مخالفة للوضع اللغوي أو العُرف البياني ، وإنما هو مسلك البلغاء الفاقهين لأسر المعنى وتصاريف الأساليب ، وهو في القرآن على أسمى وجه وأرفع منزلة .

٣- نماذج عامة :

تحدثنا في الصفحات السابقة عن لونين من ألوان التعبير القرآني نهج فيهما منهج التصوير والتمثيل في النماذج البَشرية السابقة ، ثم حياة الجمادات ، وعرفنا سر كل أولئك ، ونذكر في الصفحات التالية نماذج عامة تجلت فيها هذه السمة فوهبت الجماد حركة والمعنويات تجسيمًا ، والخفيات ظهورًا ، وكل ذلك في لمحات ساحرة من فن القول ، وجمال التصوير ، الليل والنهار والريح والصباح من الأمور المعقولة ـ هكذا استقر في أذهان الناس وهكذا كان الواقع .

● الليل والنهار والصبح :

ولكنها في القرآن أنفس حية ، وأجسام تتحرك وتتصرف تصرف الأحياء :

﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ (التكوير:١٧،١٨) ، ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴾ (الفجر:٤) ، ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ ﴾ (الأنعام:٧٦) .

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴾ أي أقبل بظلامه لتسكن الحركة ، ويئوب كل إلى مأواه .. وأين كان الليل قبل أن يقبل بظلامه ؟

الصبح حي يتنفس ، إن هذا التنفس الصادر عن الصبح هو حركة الكون كله ، تلك الحركة التي يصحو بصحوها الوجود ـ إنسان وحيوان وطيور ـ عمل دائب وحركات سريعة متداخلة هي سر التقدم والعمران .

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴾ سرى إلى متى ، ومتى جاء ؟

والليل عاقل مختار يريد شيئًا ويفعله : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ ﴾ .

وإنك لترى الليل والنهار متسابقين في مباراة حامية لا تكف عن الحركة كل منهما يبغى الآخر : ﴿ يُغۡشِى ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ (الأعراف:٥٤) .

● **الريح :**

والرياح ليست ظواهر كونية فحسب ، ولكنها مشيئة مريدة لها وظيفة تؤديها في فهم وإدراك : ﴿ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ (الحجر:٢٢).

أي بما تحمل من ماء أو طلع النخل متنقلة من ذكورها إلى إناثها ، فالتعبير قد أكسبها حياة حيوانية تلقح وتنتج .

والريح طيبة ، وعاصفة ، وعقيم ، وعاتية ، أوصاف لا تُطلق إلا على عقلاء ، ولكنك تجد في القرآن الريح موصوفة بهذا الوصف : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ (يونس:٢٢) .

ولم يكن الجائي هنا هو الريح وحده بل الموج كذلك جاء ساعيًا بلا قدم من كل مكان : يمين وشمال ، أمام وخلف .

﴿ وَفِى عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴾ (الذاريات:٤١) العُقم في الأصل يُطلق على المرأة التي لا تلد ولكنه هنا جاء وصفًا للريح التي لا تأتي بخير .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٍ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴾ (الحاقة:٦) أي شديدة البطش ، فهي جند من جنود الله الذين لا يُغلبون .

● **الأرض تهتز وتنشط :**

والأرض ليست تلك الكتلة المنبسطة التي يسير عليها الناس ، ولكنها كائن عاقل كذلك ، تراها «هامدة» مرة و«خاشعة» مرة أخرى .. وتراها فتاة خضرة تموج وتفرح ويهزها الطرب : ﴿ **وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ** ﴾ (الحج:٥) .

﴿ **وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ** ﴾ (فصلت:٣٩) . وهكذا تصبح الأرض بلمسة واحدة مصدراً للنشاط والحركة .

● **الدعاء له طول وعرض :**

والدعاء كلمات يتنفس بها المكروب ، قد تكون خفية همسات نفس ، وقد تعلو علواً نسبياً فيسمعها المتضرع ومَن يليه ، ولكنها لا تزيد على هذا الحد ، ولا يستطيع الخيال أن يبرزها إلا في حدودها الطبيعية .

لكن القرآن ـ كتاب المعجزات ـ جعل أمام الخيال من تلك الكلمات الهامسة ، وخلجات النفس المكروبة ، جعل منها دنيا عامرة فسيحة لها عرض يقصر دونه أحد وأقوى بصر ، اسمع إليه يقول : ﴿ **وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ** ﴾ (فصلت:٥١) .

فهذا الإنسان ظالم كفور لا يلتزم الاعتدال لا في حال النعمة ، ولا في حال النقمة ، فإذا كان في نعمة نسى معطيها وكفر حقها ، ولكن هذا المعنى أدى في صورة شاخصة ومنظر ماثل : ﴿ **أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ** ﴾ إنه لعقوق وكفران وسوء معاملة ، فإذا ابتلاه الله بشيء من «الشر» ملأ الدنيا طنطنة وضراعات ذاهبًا بها في كل مكان لا يزال يدعو ويتضرع لتعود إليه السلامة : ﴿ **فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ** ﴾ فالدعاء له عرض وطول ، وطوله لا يقع تحت ضابط ، فليوصف عرضه ، وإذا كان العرض هكذا ممتداً ، فما بالك بالطول ؟ ليعمل الخيال .

ومثل هذه الصور قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ** ﴾ (يونس:١٢) .

فالضر ماس ، إذن فهو له جارحة ، وهو لشموله لتفكير الإنسان ، وما يصيبه منه من قلق واضطراب سابغ لكل جزء فيه ، ومحيط به حتى لكأنه لا يكاد يُرَى من وراء هذا الغطاء الكثيف، هذه الاعتبارات أوحى بها قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ** ﴾ ، والكشف لا يكون إلا للأغطية والحُجب المحسوسة كقوله تعالى : ﴿ **لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ** ﴾ (ق:٢٢).

● **الحيرة والقلق :**

ثم انظر إلى الحيرة والقلق ، كيف يبرزهما القرآن في عبارات حساسة شديدة الحساسية: ﴿ **وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ** ﴾ (التوبة:١١٨) .

هذه الأرض الواسعة ضاقت حتى كادت تنخنق أنفاسهم ، لذلك تجد أنفسهم قد ضاقت عليهم هي الأخرى ... فإلى أين يذهبون ... أيخرجون من أنفسهم ؟ ... إنهم لو خرجوا منها ـ وكان ذلك مستطاعًا ـ لوجدوا أنفسهم فجأة في الأرض ، أو ليست هذه الأرض هي التي وجدوا فيها أنفسهم ـ فرضًا ـ قد ضاقت عليهم من قبل ... فإلى أين المصير ؟

إلى الله وحده .. لا ملجأ منه ـ لا أرضًا ولا سماءً ولا نفسًا ـ إلا إليه .

● **لفتة خاطفة :**

قل لي بربك : هل في مقدور الإنسان ـ مهما أوتي من البلاغة والبراعة ـ أن يصوِّر هذه الحالة النفسية كهذا التصوير في دقة وإيجاز واستقصاء لجوانب الصورة الواقعية والمحتملة .

لا .. ليس في إمكان بَشر .

إنه الله وحده . . وكتابه الحكيم سجل أمين حافل بهذه الصور الخلابة والمعاني الآسرة .

* * *

صفحة بيضاء

obeikan.com